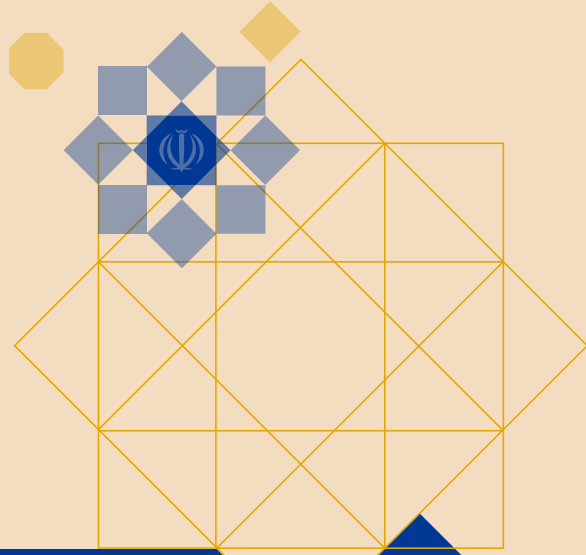




مدينة ذات أثر
في التفاعل الثقافي
بين العرب والإيرانيين



بغداد^(١)

ترجمة: أ.د. دلال عباس

(١) تاريخياً. مدينة في العراق، على ضفتي دجلة، بين دائرة العرض الشماليّة ٣٣° و ١٨، ٢٦، وخطّ الطول الشرقيّ ٤٤° و ٩، ٢٣، بُنيت في القرن الثاني الهجريّ، وظلّت مركز الخلافة إلى حين انقراض الدولة العباسيّة، ومركز العالم الإسلاميّ، الثقافيّ لقرون متماديّة. وبعد العام ٦٥٦هـ تحوّلت إلى مركز «ولاية»، وفي العصر العثمانيّ جعلت مركز ولاية بغداد، وفي العام ١٣٣٩هـ/١٩٢١م، أصبحت عاصمة العراق الجديد. لفظة بغداد، تعود إلى ما قبل الإسلام، ولها علاقة بالأماكن المأهولة القديمة في هذا المكان؛ وحين أدرك المؤلّفون المسلمون هذه الحقيقة حاولوا البحث عن أصل إيرانيّ لهذا الاسم (← المطهر المقدسيّ، مج ٤، ص ١٠١؛ ابن رسته، ص ١٠٨). وعرضوا فرضيّات متعدّدة تفسيراً لهذا الاسم، كان الأكثر تداولاً منها هو الاسم «خداداد» [عطاء الله] أو «هبة الله»، أو «بت» [الصنم المعبود] (← الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ٥٨-٥٩؛ ياقوت الحمويّ، مج ١، ص ٦٧٨-٦٧٩، أبو الفداء، مج ١، ص ٢٩٢؛ ابن الجوزيّ، المناقب، ص ٦، البكريّ، مج ١، ص ٢٦٢؛ ابن الفقيه، النسخة الخطيّة، الورقة ٢٩، ظ). وهناك ميلٌ لدى المؤلّفين المعاصرين لاعتماد هذا الاشتقاق الفارسيّ (سامن^(٢))، ص ٢٣-٢٤؛

(١) المقالة مستلّة من دائرة معارف العالم الإسلاميّ، النسخة العربيّة، مج ٣، ص ٦٦١-٦٩٣.

(2) Salmon

لسترنج^(١)، ص ١٠-١١؛ اشترك^(٢)، مج ١، ص ٤٩-٥٠؛ هرتسفلد^(٣)، ص ١٥٣؛ باج^(٤)، مج ١، ص ١٧٨). وقد عدّها البعض ذات منشأ آراميٍّ بمعنى «محلّ الأغنام» (ي. غنيمّة وأ. الكرملّيّ في لغة العرب، مج ٤، ص ٢٧، مج ٦، ص ٧٤٨؛ من الجدير بالملاحظة هنا إشارة الطبري في السلسلة الثالثة، ص ٢٧٧، إلى سوق البقر في مكان بغداد). يؤيّد دليتش^(٥) (ص ٢٠٦، ٢٣٨)، فرضيّة كون الاسم آراميًّا، بدون أن يشير إلى معناه.

ورد في وثيقة قضائيّة من عهد حمورابي (١٨٠٠ ق.م) اسم مدينة بغدادو^(٦) (شر^(٧)، رقم ١٩٧)، مما يدلّ على أنّ هذا الاسم كان يُستخدم قبل حمورابي، وقطعًا قبل أيّ نفوذ إيرانيّ. كما أشير كذلك إلى بَغ وَحُو^(٨) بعلامة. وورد في كتابة محفورة على مَعْلَمٍ حدوديّ حجريّ، يعود إلى عصر نزيماروتاش^(٩) (١٣٤١-١٣١٦ ق م)، ملك كاسي، اسمُ مدينة بلاري^(١٠) على ساحل «نهر شُري» في نواحي بغدادي (مورغان، ج ١، ص ٨٦-٩٢). هذه النقطة، مع تكرار ذكر بغدثا^(١١) في التلمود تجعل قراءة «بغ» مقبولةً أكثر (أوبرماير^(١٢)، ص ١٤٧ وما بعدها؛ جودائيكا، مادّة «بغدثا»). كذلك ذُكر اسم مدينة بغداد على حجر مزار آخر يعود إلى عهد الملك مردوك بلادان^(١٣)، ملك بابل (١٢٠٨-١١٩٥ ق م) (مورغان، مج ٣، ص ٣٢-٣٩). هاجم نراري^(١٤) الثاني (٩١١-٨٩١ ق م) عدّة

-
- (1) Le Strange
 - (2) Streck
 - (3) Herzfeld
 - (4) W.Budge
 - (5) Deltitzch
 - (6) Bagdadu
 - (7) Schorr
 - (8) Hu
 - (9) Nazimarutaš
 - (10) Pilari
 - (11) Bagdatha
 - (12) Obermeyer
 - (13) Marduk-apaliddin
 - (14) Adad-nirari

أماكن من بينها بغدا (دو). في القرن الثاني ق م، تحوّلت بغداد إلى مركز سكني آرامي. ويذكر تغلات بلاسر^(١) الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق م) بغداد في أثناء كلامه على ارتباط بينه وبين قبيلة آرامية (دليتش، ص٢٣٨).

بناءً على ما تقدم، يتبين أنّ منشأ الاسم غير واضح، ولا يغيّر في الأمر شيئاً كون الإيرانيين في القرن الثامن قبل الميلاد كانوا يستخدمون لفظة بغ بمعنى الخالق، أو جزءاً من أسماء العلم (<دائرة المعارف المتخصصة في الأشوريّات>^(٢)، مج ١، ص٣٤١). سمى المنصور (حك: ١٣٦-١٥٨هـ) مدينته مدينة السلام، إشارةً إلى الجنّة (الأنعام: ١٢٧؛ يونس: ٢٥). كان هذا اسم المدينة الرسمي، الذي يظهر في الوثائق والمستندات، والنقود المضروبة والأوزان وغير ذلك. واستخدمت للمدينة أسماء محرّفة من اسم بغداد لا سيّما بُغدان، وأسماء أخرى مثل مدينة أبي جعفر، مدينة المنصور، مدينة الخلفاء، والزوراء أيضاً (ابن الفقيه، الورقة ٢٩ ظ؛ ياقوت الحمويّ، مج ١، ص٦٧٨؛ ابن رسته، م.ن، ص.ن). ويبدو أنّ الزوراء، كما ورد في الفخريّ، اسم قديم (ابن الطقطقيّ، ص١٤٥؛ ← حمد الله المستوفيّ، ص٤١. لتوضيحات لاحقة ← المسعوديّ، التنبيه، ص٣١٢؛ ياقوت الحمويّ، مج ٢، ص٩٥٤). ذكر المؤلّفون المسلمون أنّ المكان الذي بنى فيه المنصور مدينته كان قبل الإسلام يضمّ مراكز سكنية عديدة، أهمّها قرية بغداد (← الطبريّ، السلسلة الأولى، ص٢٠٦٧، السلسلة الثالثة، ص٢٧٧؛ ابن الجوزيّ، المناقب، ص٧؛ اليعقوبيّ، ١٨٩٢م، ص٢٣٧)، على الساحل الغربيّ من دجلة في شماليّ الصّراة (الطبريّ، السلسلة الثالثة، ص٢٧٧). عدّها البعض قريةً بادوريا نفسها، وأشاروا إلى سوقها السنويّة (الخطيب البغداديّ، مج ١، ص٢٥-٢٧؛ ابن الجوزيّ، م.ن، ص٦؛ اليعقوبيّ، م.ن، ص٢٧٥)، ممّا يوضّح سبب تسمية الكرخ في ما بعد باسم محلّة التجار. كانت بعض التجمّعات السكنية القديمة، وبخاصّة الأرامية منها تقع في الجزء الغربيّ بمحاذاة الكرخ، من بينها الخطّابية (بالقرب من باب الشام)، والشرفانية، وفي

(1) Tiglat Pilasser

(2) Reallexikon der Assyriologie

شماليتها الوُردانية التي كانت تقع في محلة الحربية، وصونايا حيث يلتقي الصّرا بدجلة (بعداً العتيقة)، وقطفتا قرب مصب رُقَيْل في دجلة، وبرائثا* حيث يتفرّع نهر كرخايه من نهر عيسى. وكانت ثلاثة تجمعات بدويّة صغيرة، أي: سال، وورثالا (بعد ذلك حيّ القلّعين) وبناورا تقع بين مدينة كرخايه والصراة. وقد أخذ اسم الكرخ نفسه (في الآرامية كرخه بمعنى المدينة المنيعّة) من اسم قرية قديمة، منسوبة بحسب الروايات الإيرانية إلى شابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩م) (حمد الله المستوفي، ص ٤٠؛ ← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ ابن الأثير، مج ٢، ص ٣٤٢-٣٤٣؛ ياقوت الحموي، مج ٣، ص ٦١٣؛ ابن الجوزي، م.ن، ص ٧).

ذكر غزانوفون، أنّ الأخاميين كانوا يملكون حدائق واسعة في ناحية بغداد (في ستاكة). ويشير المؤلّفون المسلمون إلى حديقتين منها (← حمد الله المستوفي، م.ن، ص.ن). كان يوجد بالقرب من مجرى نهر عيسى، قصر ساسانيّ (قصر شابور)، وقد بنى المنصور بعد ذلك في المكان نفسه جسراً. أمّا القنطرة القديمة (القنطرة العتيقة) فوق نهر الصراة، في الجنوب الغربيّ من بؤابة الكوفة، فتعود إلى العصر الساسانيّ. في القسم الشرقيّ، كانت سوق الثلاثاء، ومقبرة خيزران التي تعود إلى ما قبل الإسلام؛ كما كان في تلك المنطقة عدد من الأديرة تعود إلى العصر الجاهليّ؛ مثل دير مارقثيون^(١) (الدير العتيق)، حيث بُني في ما بعد قصر خالد، ودير بستان القسّ، ودير الجاثليق*، الذي دُفن معروف الكرخيّ بجواره (الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٢٧٤، ٢٧٧؛ ابن الفقيه، الورقتان ٣٦-٣٧و؛ الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ٩٦، ١٢١، ١٢٥، المسعوديّ، التنبيه، م.ن، ص.ن؛ الذهبيّ، مج ١، ص ٧٦؛ حمد الله المستوفي، م.ن، ص.ن).

لم يكن لأيّ من المراكز السكنية القديمة أهميّة سياسيّة أو تجاريّة، لذلك يمكن أن تُعدّ مدينة المنصور مدينةً حديثة البناء. لم يميّز السياح الأوروبيون في القرون الوسطى، في معظم الأحيان، بين بغداد وبابل وعدّوهما مدينة واحدة، أو بين بغداد وسلوكيه،

(1) Māfathion

وسمّوها في تقاريرهم بابل، بابلونيا^(١) وغير ذلك من الأسماء المشابهة. وكان الاستخدام غير الصحيح للاسم الأخير بالنسبة إلى بغداد شائعاً في التفاسير التلمودية غيونيم^(٢) بابل (في العصر العباسي)، وفي كتابات اليهود المتأخرين أيضاً. وكان بيترودلواله^(٣) الذي أقام في بغداد في العامين ١٠٢٥-١٠٢٦هـ/١٦١٦-١٦١٧م، أوّل من تنبّه إلى هذا الخطأ الشائع في عصره. ظلّ اسم بغداد حتى القرن الحادي عشر الهجريّ/السابع عشر الميلاديّ معروفاً بالشكل المحرّف بلدخ^(٤) (بلدكو^(٥)) الذي يمكن أن يكون مشتقاً من الشكل الصيني لهذا الاسم (← برتشنايدر^(٦))، مج ١، ص ١٣٨، مج ٢، ص ١٢٤؛ بولو، ص ٢٩، ١٢٦).

رنت أبصار العباسيين نحو الشرق، ولإبراز عظمة دولتهم، بحثوا عن عاصمة جديدة لها. انتقل السقّاح، أوّل الخلفاء العباسيين من الكوفة إلى الأنبار. وانتقل المنصور إلى الهاشمية بالقرب من الكوفة، لكنّه سرعان ما اكتشف أنّ الكوفة بسكّانها الميالين إلى التمرد، والموالين عليّاً عليه السلام، يُفسدون جنده، فانتقل عنهم يرتاد موضعاً آخر، ولم تكن الهاشمية ملائمة كذلك بعد فتنة الراوندية (← ياقوت الحمويّ، مج ١، ص ٦٨٠-٦٨١؛ الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٢٧١-٢٧٢؛ ابن الطقطقي، ص ١٤٣). بناءً عليه، قرّر أن يجد مكاناً استراتيجياً ملائماً للعامة والجيش. وبعد بحث وتدقيق وبثّ العيون اختار هذا الموضع بناءً على مواصفاته العسكرية والاقتصادية والمناخية. كان هذا الموضع يقع في سهل خصب، مخضّر الزرع والنبات على ضفتي النهر، على رأس الطريق إلى خراسان، حيث تلتقي القوافل وتقام الأسواق الشهرية؛ ويكثر الرزق للعامة وللجند، وفيه شبكات أنهار متعدّدة، تُستخدم في الزراعة، وتحمي المدينة من جميع

-
- (1) Babellonia
 - (2) Geonim
 - (3) Pietro Della Valle
 - (4) Baldach
 - (5) Baldacco
 - (6) Bretschneider

جوانبها. تقع بغداد في وسط ما بين النهرين، عذبة الماء معتدلة الهواء، تخلو نسبياً من الهوامِّ (اليعقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٣٥-٢٣٨؛ نفسه، ١٨٨٣م، مج ٢، ص ٤٤٩؛ الطبري السلسلة الثالثة، ص ٢٧٢-٢٧٥؛ ياقوت الحموي، مج ١، ص ٦٧٩-٦٨٠؛ ابن الجوزي، المناقب، ص ٧-٨؛ محمد المقدسي، ص ١١٩-١٢٠؛ ابن الأثير، مج ٥، ص ٤٢٦-٤٢٧؛ ابن الطقطقي، ص ١٤٣-١٤٥). وحول أوصاف بغداد، وأن بنائها بيد المنصور كان أمراً مقدراً ومكتوباً، نُسجت حكايات تنضح بالمبالغات (← اليعقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٣٧، ابن الطقطقي، ص ١٤٤؛ الطبري، ابن الجوزي، م.ن، ص.ن).

كسفت بغداد ما سبقها من المدن، خليفةً لبابل وسلوكيه وتيسفون؛ وأول من قدّم وصفاً مفصلاً لبغداد كان اليعقوبي (في العام ٢٧٨هـ) وبعده ابن الفقيه (في العام ٢٩٠هـ)، كما وصف سهراب (حوالي العام ٢٨٧هـ) شبكة الأنهر في تلك المنطقة. تشبه هذه المدينة بتحسيناتها وتصميمها الداخليّ القلعة الكبيرة. تبدأ بخندق عميق عرضه ٤٠ ذراعاً (= ٢٧,٢٠م)، يحيط بالمدينة من جميع جوانبها، ثم الأنبار الآجريّة، يليها أول الأسوار، وقاعدته ١٨ ذراعاً (= تسعة أمتار)، وبعده فضاء خالٍ عرضه مائة ذراع (٥٦,٩م) (بصدد المقييس ← الرّيس، الخراج)، يُستخدم لأغراض دفاعيّة، يأتي من ثمّ السور الرئيسيّ المبنيّ بالطوب، يبلغ ارتفاعه ٣٤,١٤م، وعرض قاعدته ٥٠,٢م، وعرضه من علٍ ١٤,٢٢م. وبين كلّ بوابتين من بوابات السور ٢٨ برجاً كبيراً، ما عدا بوابتي الكوفة والبصرة، بينهما ٢٩ برجاً. كلّ بوابة فوقها قبة مشرفة على المدينة، وتحت القبة بُنيتُ غرفٌ لإقامة الحرس. يأتي بعد ذلك دور الرحبة التي يبلغ عرضها ١٧٠,٧م بُنيت فيها الدُور، ولم يكن يُسمح لأصحاب المناصب والمقرّبين (الموالي) أن يبنوا البيوت فيها. مع ذلك كان لكلّ طريق بوابتان مُحكمتان، يُمكنُ إقفالهما. يُلاحظ بعد ذلك سور ثالث بسيطٌ يحيط بتحويطة واسعة، بُني فيها قصر الخليفة (باب الذهب)، والمسجد الجامع، والدواوين، ومنازل أبناء الخليفة، وسقيفتان إحداهما لرئيس الحرس، والأخرى لصاحب الشرطة، بهدف الإشراف على المدينة، وتسهيل الاتصالات الداخليّة، ومراقبة طرق القوافل في الخارج؛ وقد قُسمت المدينة إلى أربعة أقسام متساوية، وكلّ قسم

منها يُقسم بطريقين يبدأان من بوابتيه المتساويتي البعد. تقع بوابة خراسان (أو بوابة الدولة كما كانت تسمى أيضاً) في الشمال الشرقي، وبوابة البصرة في الجنوب الغربي، وبوابة سوريا في الشمال الغربي، وبوابة الكوفة في الجنوب الشرقي. للوصول إلى الدائرة الداخلية يجب اجتياز الخندق والعبور من خمسة أبواب: بابان في السور الخارجي، وبابان عظيمان في السور الكبير، وباب خامس في السور الداخلي (← يعقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٣٨-٢٤٢؛ نفسه، ١٨٨٣م، م.ن، ص.ن: الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٣٢٢-٣٢٣؛ ابن الجوزي، المناقب، ص ٩-١٠؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٧٢-٧٤؛ ابن الأثير، مج ٥، ص ٤٢٧-٤٢٨، ٤٣٩؛ ابن الفقيه، الورقة ٣٣ و).

في هذا التصميم يمكن بسهولة ملاحظة التقاليد الإمبراطورية القديمة. والشواهد على ذلك الفصل بين مقرّ الخليفة، وأبناء الشعب، الفخامة في تصميم القصر والمسجد للدلالة على عظمة الدولة الجديدة، وإقامة الناس في أحياء منفصلة، تُقفل بواباتها، وتُحرس.

أفخم ما في هذه المدينة المدوّرة، «القبّة الخضراء»، التي يبلغ ارتفاعها ٦٨,٣٦م، وهي مشرفة على القصر، وعلى رأس القبّة صنم على صورة فارس في يده رمح، وقد سقط رأس القبّة، ومعه الفارس في العام ٣٢٩هـ وربما أصابته صاعقة في ليلة مطر عظيم ورعد هائل (الصولي، ص ٢٢٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، مج ٦، ص ٣١٧-٣١٨؛ نفسه، المناقب، ص ١١؛ ابن تغري بردي، مج ٣، ص ٢٧٠؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٢٣). لكن أسوارها ظلّت قائمة لمُدّة أطول، إلى أن انهارت كلياً في العام ٦٥٣هـ (ابن الفوطي، ص ٣٠٣؛ سبط ابن الجوزي، مج ٨، ص ٦٧). لقد استُخدمت الحجارة والمرمر في بناء قصر «باب الذهب»، وزُخرفت بواباته بالذهب. ظلّ هذا القصر لمُدّة نصف قرن مقرّ الإقامة الرسمي، ومع أنّ الرشيد لم يهتمّ به كثيراً، إلا أنّ الأمين أضاف عليه جناحاً جديداً، وبنى حوله «ميداناً». وفي العام ١٩٨هـ أصيب هذا المبنى بأضرار كبيرة في أثناء محاصرة طاهر- قائد المأمون- لمدينة بغداد، ومنذ ذلك الحين، لم يُعد باب الذهب المقرّ الرسمي، ولحق به الإهمال (← ابن الفوطي، م.ن، ص.ن).

بُنِيَ المسجد (جامع المنصور) خلف القصر، ولذلك هو منحرفٌ قليلاً عن القبلة (← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٣٢١-٣٢٢؛ ابن الأثير، مج ٥، ص ٤٣٩). في العام ١٩١ هـ هدّمه الرشيد وأعاد تعميره بالآجر، وقد أُجريت عليه تحسينات وإضافات في الأعوام ٢٦٠-٢٦١ و ٢٨٠ هـ. كما أنّ المعتضد ضمّ إليه باحةً جديدة، ورمّم بعض أجزائه (ابن الجوزي، المنتظم، مج ٥، ص ٢١، ١٤٣؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١٠٧-١٠٨). كان للمسجد منارة (الخطيب البغدادي، ج ٥، ص ١٢٥)، أكلتها النيران في العام ٣٠٣ هـ (ابن الجوزي، م.ن، مج ٦، ص ١٣٠)، لكن أُعيد تعميرها من جديد (← م.ن، مج ٧، ص ٢٨٤). كان هذا المسجد في عصر الخلافة هو المسجد الجامع لمدينة بغداد، وفي العام ٦٥٣ هـ اجتاحتها السيول، ثمّ كانت حملة المغول التي لم تُبق ولم تذر.

تعكس خريطة مدينة بغداد العقلية الاجتماعية. كان يتولّى مسؤولية كلّ محلة من المحلات أحد الشخصيات البارزة، وكانت المحلّة متجانسة إما قومياً (محلّة الإيرانيين، محلّة العرب، محلّة الخوارزميين) وإما مهنيّاً. وكانت بيوت الجند في خارج محيط الأسوار، وعادة في الشمال الغربي من المدينة، في حين كانت مراكز التجار والصّناع في جنوبي الصّراة في الكرخ (← ابن الفقيه، الورقة ٢٩ ظ، ٣٣ ظ، ٣٧ ظ).

كان للأسواق في خريطة بغداد الحصّة الرئيسيّة. في البداية، وعلى طول كلّ طريق من الطرق الأربعة، ابتداءً من السور الكبير وصولاً إلى السور الداخليّ صفوفٌ من الغرف ذات طاقات مرتفعة، تُستخدم كدكاكين، والمحصّلة أربع أسواق (← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٣٢٢). فضلاً عن ذلك، أمر الخليفة أن يكون لكلّ قسم من الأقسام الأربعة خارج السور مساحة رحبة كافية لإقامة السوق، بحيث يكون لكلّ قسم سوق كبيرة (اليعقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٤٢). في العام ١٥٧ هـ دفعت الاحتياطات الأمنيّة المنصور، إلى إصدار أوامره بنقل الأسواق من المدينة المدوّرة إلى الكرخ. وكان يبغى من وراء ذلك إبعاد مثيري الفتن عن المدينة، ويكون متأكّداً من أنّ بوابات الأحياء لن تبقى مفتوحةً بذريعة الأسواق، وبذلك يمنع دخول الجواسيس المتخفّين، المحتملين، إلى داخل المدينة. وقد وضع خريطة تُبنى على أساسها الأسواق في الحدّ الفاصل بين

الصراة وأنهر عيسى (الطبري)، السلسلة الثالثة، ص ٣٢٤-٣٢٥؛ ابن الجوزي، المناقب، ص ١٣-١٤؛ ياقوت الحموي، مج ٤، ص ٢٥٤).

هنالك رواية تقول إن المنصور كان يريد أن يهدم جزءاً من سور القصر الأبيض في تيسفون، واستخدام أجره في مبانيه، لكنّه عاد وعدل عن هذه الفكرة لكلفتها الباهظة. وهنالك رواية أخرى تقول إن المنصور كان يريد أن يرمم القصر الأبيض، إنّما لم تُتح له الفرصة الملائمة. هاتان الروايتان تذكّران بمباحكات الشعوبية. في كلّ الأحوال، بُنيت المدينة في معظمها بالطوب.

يشير اليعقوبي إلى أنّ خريطة المدينة، رُسمت في العام ١٤١هـ (١٨٩٢م، ص ٢٣٨)، لكنّ البداية الفعلية للعمل كانت في جمادى الأولى من العام ١٤٥هـ (رواية الخوارزمي كما أوردها الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٧، ٦٦-٦٧). وضع خريطة المدينة أربعة معماريين. وكان معماري المسجد الحجاج بن أرطاة (الطبري)، السلسلة الثالثة، ص ٢٧٦؛ اليعقوبي، م.ن، ص ٢٤١). وجمع المنصور مائة ألف من العمّال والصنّاع المهرة للعمل في بنائها (اليعقوبي، م.ن، ص ٢٣٨؛ الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٢٧٧). ومدّ قناة من نهر دُجيل الآخذ من دجلة، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرّهما إلى مدينته في عقود وثيقة، لتأمين مياه الشرب، والمياه اللازمة لأعمال البناء (اليعقوبي، م.ن، ص.ن). والظاهر أنّ بناء القصر والمسجد والدواوين انتهى في العام ١٤٦هـ فانتقل المنصور إلى بغداد (الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٣١٣؛ الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٦٧). وقُبيل العام ١٤٩هـ انتهى بناء المدينة المدوّرة (الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٣٥٣؛ الخطيب البغدادي، م.ن، ص.ن).

إنّ مدينة المنصور المدوّرة أمّودج لفت لبناء المدن؛ كانت بغداد مدوّرة إلى حدّ أنّ مركزها كان يبعد عن أقسامها المختلفة مسافات متساوية، مما يسهّل مراقبتها والدفاع عنها. وربّما كان مهندسو المدينة المدوّرة مطّلعين على تصاميم المدن المدوّرة.

ذكر ابن الفقيه، أنّه كان ينبغي اختيار أحد مخطّطين، إمّا المدور وإمّا المربع، وتبيّن أنّ المدور أكمل (الورقة ٣٣ ظ). لكنّ الاحتمال الأقوى أنّ يكون مخطّط القلعة

المدوّرة قد أُرث في وضع خريطة المدينة. يقول الطبريّ (السلسلة الثالثة، ص ٢٧٦): «بنى المنصور أربع بوابات (للمدينة)، مقتبسًا ذلك من الثكنات العسكريَّة». أمّا بالنسبة إلى أبعاد مدينة المنصور فهناك روايات مختلفة، ذكر ربّاح أحدُ معماريّ المدينة أنّ المسافة الفاصلة بين كلّ بوابتين كانت ميلاً (أي ٤٠٠٠ ذراع مُرسلة أو ١٨٤٨ مترًا؛ الرّيس، ص ٢٧٨؛ الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ٧١) (وورد هذا التخمين لدى ابن الجوزيّ في المناقب، ص ٩؛ ياقوت الحَمَوِيّ، مج ١، ص ٢٣٥؛ ابن تَغري بردي، مج ١، ص ٣٤١؛ والأربليّ، ص ٥٤)، وهذا التخمين مطابقٌ للمقاييس التي أخذت للمدينة بأمر من المعتضد، وأشار إليها بدر المعتضديّ (الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ٦٩؛ ابن تَغري بردي، م. ن، ص. ن). ويدلُّ ذلك على أنّ قطر المدينة كان ٢٣٥٢ م. وهذا ما يجعل تخمين يعقوبيّ المتعلّق بالمسافة الفاصلة بين كلّ بوابتين خارج الخندق أي خمسة آلاف «ذراع سَوْداء» (أو ٢٥٣٤,٥ م)، محتملاً (١٨٩٢ م، ص ٢٣٨-٢٣٩).

لقد ذُكرت روايات مختلفة أيضًا حول ما أنفقهُ المنصور على بناء هذه المدينة. لكنّ الرواية الرسميّة الصادرة عن مؤسّسة الخلافة تقول إنّ المنصور أنفق على عمارة بغداد أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثة وثمانين درهمًا (الطبريّ، السلسلة الثالثة، ص ٣٢٦؛ محمّد المقدسيّ، ص ١٢١؛ الخطيب البغداديّ، م. ن، ص. ن؛ أيضًا ← ابن الأثير، مج ٥، ص ٤١٩؛ ابن الجوزيّ، المناقب، ص ٣٢). وهذا الرقم يبدو مقبولًا إذا أخذنا في الاعتبار الحدّ الأدنى لأجور العمّال، ولأسعار مواد البناء، فضلًا عن تشدّد المنصور في التدقيق بالحسابات. في العام ١٥٧ هـ بنى المنصور على ضِفّة دجلة، إلى الأسفل من بؤابة خراسان قصرًا محاطًا بالحدائق الغنّاء سمّاه الخُلد. كان هذا المكان خاليًا من البعوض، ومشهورًا بجودة مُناخه. واسمه يذكّر بجنة الخُلد (الطبريّ، السلسلة الثالثة، ص ٣٧٩؛ الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ٧٥؛ ياقوت الحَمَوِيّ، مج ٢، ص ٧٨٣؛ ابن الجوزيّ، م. ن، ص ١٢؛ ابن الأثير، مج ٦، ص ٧١؛ ابن الفقيه، الورقة ٣٧ ظ).

قرّر الخليفة المنصور بناءً على التدابير الاستراتيجية والسياسيّة التي اعتمدها في تقسيم الجيش، وبسبب ضيق المكان، أن يبنّي معسكرًا لخليفته المهديّ في الجهة

الشرقية من دجلة. كان معسكر المهدي يقع في الجزء المركزي (سُمي بعد ذلك «الرصافة» على اسم قصر الرشيد). وقد بُني قصره والمسجد أيضًا في المكان نفسه، وحولهما منازل أصحاب المناصب ورجال الحاشية، وبسرعة تشكل الجزء التجاري في أسواق باب الطاق المشهورة. كما أنَّ السور والخندق المحيطين بالمعسكر أبرزوا بوضوح الجزء العسكري؛ بدأ العمل في العام ١٥١هـ وانتهى في العام ١٥٧هـ كانت الرصافة تقع مقابل مدينة المنصور تقريبًا (اليقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٥١-٢٥٣؛ الاصطخري، ص ٨٣-٨٤؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٨٢-٨٣؛ ابن الجوزي، م.ن، ص ١٢-١٣؛ محمد المقدسي، ص ١٢١؛ ابن تغري بردي، مج ٢، ص ١٦؛ ياقوت الحموي، مج ٢، ص ٧٨).

سرعان ما ازدهرت بغداد عمرانيًا وتجاريًا وثروةً وعدد سكان. وكانت الكثافة السكانية متمركزة في الناحية الشرقية من بغداد التي اجتذبت إليها السكان بسبب عطايا الخليفة المنصور، ثم البرامكة الذين كانوا يملكون حيا خاصًا بهم في الشماسية (اليقوبي، م.ن، ص ٢٥١؛ أبو الفرج الإصفهاني، مج ٥، ص ٨، مج ٦، ص ٧٨؛ ابن خلكان، مج ١، ص ٤٧٤). بنى يحيى البرمكي قصرًا فخماً، وأطلق عليه اسم قصر الطين تواضعًا (أبو الفرج الإصفهاني، مج ٥، ص ٨). وفي أدنى الناحية الشرقية من بغداد بنى جعفر البرمكي قصرًا عظيمًا وفخمًا، وهب في ما بعد للمأمون. كان القسم الشرقي من بغداد في عهد هارون الرشيد يمتد من بوابة الشماسية (مقابل بوابة قَطْرُبُل) إلى بوابة المخرم (التي يشكل جسر المأمون، الجديد، حدها الجنوبي) (اليقوبي، م.ن، ص ٢٥٣-٢٥٤). من ناحية أخرى، تخلى الأمين عن قصر الخلد الذي كان مقر إقامة الرشيد، وعاد إلى قصر باب الذهب بعد أن رممه وأضاف إليه جناحًا جديدًا، وأحاطه بباحة واسعة (← الجهشياري، ص ١٩٣؛ ابن الأثير، مج ١١، ص ١٥٢). بنت الملكة زبيدة مسجدًا على ضفة دجلة، بالقرب من القصور الملكية، اشتهر باسم مسجد زبيدة، ومسجدًا فخماً آخر في إقطاعها الخاص في شمالي المدينة (الأبشهي، مج ١، ص ٢٨٩). كما بنت قصرًا باسم القرار إلى جانب قصر الخلد. ازدهر القسم الغربي من المدينة بين بوابة قَطْرُبُل في الشمال ومحلة الكرخ التي امتدت بدورها حتى نهر

عيسى الكبير (يصب هذا النهر حاليًا في دجلة عند تُلُولِ خَشْمِ الدَّوْرَةِ)؛ ويمتدُّ هذا القسم غربًا حتى المَحْوَل (المشرق، ١٩٣٤م، ص ٨٩؛ ← شعر أوردته ياقوت الحَمَوِّي، مج ١، ص ٦٨٦؛ المسعودي، المروج، مج ٦، ص ٤٥٤؛ الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٨٧٤، ٨٧٦). ومدح الشعراء بغداد، ووصفوها بأنّها «جَنَّةُ الله على الأرض»، ومدينة السلام وقبّة الإسلام ومجمع الرافدين وقرّة البلاد، وعين العراق، بحدائقها الغنّاء، وقصورها الشاهقات الأنيقة، وما فيها من زخارف وتزيين، وأبوابها المفتحة وقاعاتها الفسيحة ورياشها الفاخرة النفيسة (← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٨٧٣-٨٧٤؛ القالي، مج ٢، ص ٢٣٧؛ ياقوت الحَمَوِّي، مج ١، ص ٦٨٦).

وقد تضرّرت بغداد كثيرًا في أثناء الصراع بين الأمين والمأمون، فبعد أربعة عشر شهرًا من الحصار، امتدّت المعارك إلى داخلها (المسعودي، م.ن، ص.ن). وقد أحنّقت المقاومة العنيفة للمدافعين عن المدينة طاهرًا فأصدر أوامره بهدم المباني على رؤوس أصحابها، فحلّ الدمار بالأحياء الواقعة «بين دجلة، ودار الرقيق (في شماليّ بوابة خراسان)، وبوابة سوريا، وبوابة الكوفة حتى الصراة، ونهري كرخاية وكُنَاسَة» (الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٨٨٧). وأكمل العيّارون والعوامّ، والخارجون على القانون القضاء على ما بقي فيها من عمران، ولحقت الأضرار الفادحة بقصر الخلد وسائر القصور، وبحيّ الكرخ وبعض الأحياء الأخرى في القسم الشرقيّ من المدينة؛ وذكر الطبريّ والمسعوديّ «أنّ الخراب والهدم كانا شديدين، وقد ذهباً بعظمة بغداد» (← الطبريّ، السلسلة الثالثة، ص ٧٨٠-٧٨٩، ٩٢٥-٩٢٦؛ المسعوديّ، م.ن، مج ٦، ص ٤٥٤-٤٥٩؛ ابن الأثير، مج ٦، ص ١٨٨ وما بعدها). وقد استمرّت الفوضى والهرج والمرج في بغداد حتى العام ٢٠٤هـ تاريخ عودة المأمون من مرو. حيث أقام في قصره، ووسّعه، وأضاف إليه ميدانًا لسباق الخيل، وحديقة حيوانات، وبنى مساكن لأتباعه المخلصين (ياقوت الحَمَوِّي، مج ١، ص ٨٠٧). وقد وهب المأمون قصره بعد ذلك للحسن بن سهل - فاشتهر باسم القصر الحسنيّ - الذي ورّثه لابنته بوران. لقد استعادت بغداد في عهد المأمون عزّها ورونقها. وبنى المعتصم بعد ذلك قصرًا في الجزء الشرقيّ من بغداد (اليعقوبيّ،

١٨٩٢م، ص ٢٥٥؛ ← الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٩٨). لكنّه تخلّى عن المدينة، بحثاً عن عاصمة جديدة للجيش الذي استحدثه، لأنّ بغداد كانت مدينة مزدحمة لا مجال فيها لإقامة الجند، وأهلها وفرق الجيش القديم، يكرهون جنوده الأتراك، وكان يخشى من احتدام الصراع بين الفريقين. ولم تعدّ بغداد قبلة الخلفاء في مرحلة ازدهار سامراء (٢٢٠-٢٧٨هـ) (← الأربلي، ص ١٦١)، لكنّها ظلّت المركز التجاريّ الرئيسيّ، والمركز الثقافيّ والعلميّ.

حين انتقل المستعين من سامراء إلى بغداد، شهدت المدينة من جديد تعديّات الأتراك، وحلّت بها الأضرار، وقد حاصرتها قوّات الخليفة المعتزّ طيلة العام ٢٥١هـ. وفي هذه المرحلة توسّعت الرصافة وصولاً إلى سوق الثلاثاء (شارع صموئيل الحاليّ). وقد حصّن الخليفة المستعين بغداد؛ وامتدّ حصن الجزء الشرقيّ منها من بوابة الشّماسيّة حتى سوق الثلاثاء، ومن الغرب توسّعت المدينة من إقطاع أم جعفر في محيط المحلّات وصولاً إلى الصراة، وحُفر حولها الخندق المعروف باسم خندق طاهر (الطبريّ)، السلسلة الثالثة، ص ١٨٥١). في أثناء الحصار، هُدّمت المنازل، والدكاكين، والحدائق الواقعة خارج الحصن الشرقيّ، لضرورات دفاعيّة (م.ن، السلسلة الثالثة، ص ١٥٧١)، كما لحقت الأضرار بالأحياء الواقعة شرقيّ الشّماسيّة، والرصافة، والمُخَرَّم.

في العام ٢٧٨هـ رجع المعتد إلى بغداد، وطلب إلى بوران أن تتخلّى له عن القصر الحسنيّ، فعمدت بوران إلى ترميم القصر وزخرفته بما يناسب ذوق الخليفة، ومن ثمّ قدّمته له (← ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٥، ص ١٤٤). وفي العام ٢٨٠هـ جدّد الخليفة المعتضد بناء القصر، وألحق به أراضٍ واسعة، وأضاف عليه أبنية جديدة، وبنى سجوناً في أرض المطامير، وأقام ميداناً لسباق الخيل، ثم بنى حصناً خاصاً حول رحبته، اشتهر باسم دار الخلافة، أصبح مع ملحقاته مركز الإقامة الرسميّ (الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ١٠٩؛ ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٦، ص ٥٣؛ نفسه، المناقب، ص ١٥؛ التنوخيّ، نشوار، مج ٨، ص ١٥؛ ابن تغري بردي، مج ٣، ص ٨٥؛ الأربليّ، ص ١٧٣). في ذلك الحين بدأ بناء قصر التاج على شاطئ دجلة، لكنّه بعد أن عاين كثافة الغبار القادم من جهة

المدينة، أخذ قرارًا ببناء قصر آخر على بعد ميلين إلى الشمال الشرقي، فكان القصر العظيم الشاهق البنيان، الذي سُمِّيَ باسم قصر الثريا، الذي اتصل بالقصر الحسنِي من خلال دهليز حُفِرَ تحت الأرض، وأحاطت به الحدائق، ووزُود بالمياه بواسطة قنوات مُدَّت إليه من نهر موسى (← وصف ابن المعتز، ص ١٣٨-١٣٩). وللمحافظة على نقاء الأجواء، أمر بالكف عن غرس النخيل وزراعة الأرز في ضواحي بغداد (← ابن الجوزي، المنتظم، مج ٥، ص ١٤٢). ظلَّت الثريا في وضع جيد حتى العام ١٦٩هـ حيث تهدمت على إثر الفيضان (ابن الجوزي، المناقب، م.ن، ص.ن؛ ياقوت الحموي، مج ١، ص ٨٠٨). منذ ذلك الحين بدأ الخراب يلحق بالمدينة المدورة، وأصدر المعتضد أمرًا بهدم حصن المدينة، لكن بعد تهديم جزء صغير منه، ارتفعت شكاوى الهاشميين، الذين قالوا إنَّ هذا الحصن يذكّر بعظمة العباسيين، فكفَّ المعتضد عن تهديمه. لكنَّ الناس توسَّعوا في بناء منازلهم على حساب خراب الحصن ودمار المدينة (التنوخِي، نشوار، مج ١، ص ٧٤-٧٥).

بنى المكتفي (حك: ٢٨٩-٢٩٥هـ) قصر التاج بقاعاته الواسعة وقببه العظيمة، كما بنى أنبارًا على ضفة دجلة، وفي رحبة هذه المنطقة بنى قبة عظيمة نصف دائرية، يمكن [من خلال طريق مدرج] لراكب البغل أن يصعد إلى أعلى قممها (الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٩٩؛ الأربلي، ص ١٧٥؛ ياقوت الحموي، مج ١، ص ٨٠؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ١٤٤). في العام ٢٨٩هـ هدم المكتفي السجون، وبنى مسجدًا جامعًا (جامع القصر)، ظلَّ ثالث المساجد الجامعة حتى عصر المقتدر (ابن الجوزي، م.ن، مج ٦، ص ٣؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١٠٩).

أضاف المقتدر (حك: ٢٩٥-٣٢٠هـ)، مباني جديدةً إلى القصور السلطانية، وزخرفها على نحو مثير للدهشة، وأولى اهتمامًا خاصًا بحديقة الحيوانات (حَيْر الوحوش) (الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١٠٠-١٠٣). والشرح المفصّل حول أحداث العام ٣٠٥هـ الذي قدّمه الخطيب البغدادي مثير للاهتمام. وكان السور المتين المحيط بالقصور والدهليز السري الذي يصل قاعة الاستقبال الكبرى في بلاط المقتدر بإحدى البوابات،

من بين الإجراءات الدفاعية الضرورية المهمة (← م.ن، مج ١، ص ١٠١). ومن ضمن العجائب يجب أن نذكر دار الشجرة، الذي كان عبارة عن شجرة فضية في وسط بركة كبيرة، لها ثمانية عشر فرعاً وما لا يحصى من الأغصان، تحطّ عليها طيور فضية وذهبية، تصدر عنها أحياناً أصواتٌ شبيهة بالتغريد. وعلى جانبي البركة ثمانية عشر تمثالاً لفرسان يتحركون باتجاه واحد، وكأنّ الواحد منهم يجري للحاق بالآخر (م.ن، مج ١، ص ١٠٣). وهناك أيضاً حوض من زئبق سعته ٣٠×٢٠ ذراعاً، تطفو فوقه أربعة مراكب مذهبة، وتحيط به حديقة خرافية، وحيرُ الوحوش أو الحديقة التي تضمّ مختلف أنواع الحيوانات، وكان في خصّ الأسود مائة أسد. لقد كان قصر الفردوس من حيث كثرة أسلحته ونوعيتها أمراً عجباً. كما بُني في داخل الرحبة السلطانية ٢٣ قصرًا (← م.ن، مج ١، ص ١٠٣-١٠٤؛ ابن الجوزي، م.ن، مج ٦، ص ١٤٤).

وصلت بغداد في هذه المرحلة التاريخية إلى أوج مجدها. وبلغ طول القسم الشرقي منها، من الشّمسية حتى دار الخلافة خمسة أميال (الميل: ١٨٤٨م) (الاصطخري، ص ٨٣). يحيى ابن أبي طاهر (المتوفى سنة ٢٨٠هـ)، أنّ الموقّ أصدر قبل العام ٢٧٩هـ أمراً بمسح بغداد، فكان مقدار مساحتها ٤٣٧٥٠ جريباً، ٢٦٢٥ جريباً في شرقها و١٧٥٠٠ جريب في غربها (ابن الفقيه، الورقة ٤٤ ظ؛ ← ابن حوقل، مج ١، ص ٢٤٣؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١٢٠). وبناء على رواية منقولة عن ابن أبي طاهر، كانت مساحة شرقيّ بغداد في زمن الموقّ ١٦٧٥٠ جريباً (الجريب = ٢م١٣٦٦) وغربيّ بغداد ٢٧٠٠٠ جريب. ومقدار المساحة هذا محتملٌ لأنّ غربيّ بغداد كان لا يزال أكثر أهمية في ذلك الحين. وهناك رواية أخرى تقول إنّ مساحة المدينة كانت ٥٣٧٥٠ جريباً، منها ٢٦٧٥٠ جريباً في الشرق، و٢٧٠٠٠ جريب في الغرب. وهناك احتمالٌ أنّ يكون الرقم الأخير عائداً إلى عصر المقتدر، حيث ازدهر القسم الشرقيّ من بغداد ازدهاراً عظيماً. أمّا طول بغداد، فواحد في جميع الروايات.

لقد أصبحت بغداد المركز التجاريّ الرئيسيّ بسبب موقعها الجغرافيّ، وسكانها الناشطين (← الجاحظ، البخلاء، ص ٣٩؛ التنوخيّ، الفرج، مج ٢، ص ١١)، وتشجيع

الدولة للتجارة (← اليعقوبي، ١٨٨٣م، مج ٢، ص ٥٩٠)، وعظمة الخلافة (← الدوري، ص ١٤٣-١٥٧). لقد أصبحت أسواق بغداد، في الرصافة، وفي الكرخ بشكل خاص، من السمات الأساسية للحياة في المدينة، وكان لكل حرفة سوق خاصة بها؛ كسوق الفاكهة، وسوق الأقمشة، وسوق القطن، وسوق الوراقين التي كانت تضم أكثر من مائة دكان، وسوق الصرافين، وسوق العطارين في الكرخ، وأسواق التجار الأجانب في سوق باب الشام. في القسم الشرقي من المدينة، كانت تنتشر أنواع وأقسام من الأسواق تضم سوق العطارين (سوق الطيب)، سوق المواد الغذائية، سوق الصاغة، سوق الوراقين، سوق البضائع الصينية (اليعقوبي، ١٨٩٢م، ص ٢٤١، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٤؛ الأصطخري، ص ٨٤، الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٧٩-٨١؛ ابن الجوزي، المناقب، ص ٢٦-٢٨؛ ابن حوقل، مج ١، ص ٢٤٢). ومنذ عهد المنصور، كان يُعَيَّن محتسب لمراقبة الأسواق، ولمنع الغش والتلاعب بالأسعار والأوزان والمكاييل (← الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٨١، إبراهيم الصابي، ص ١١٤، ١٤١-١٤٢؛ الماوردي، ص ١٤١-١٤٢). كان المحتسب يراقب الحمامات أيضاً، وربما المساجد (الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١١٧)؛ وكان فضلاً عن ذلك يمنع الأعمال التخريبية.

كان لكل سوق أو حرفة رئيس (عريف)، تعينه الحكومة. وكان لكل حرفة «صانع» و«أستاذ» (← إخوان الصفا، مج ١، ص ٢٥٥؛ ← الجاحظ، الرسائل، ص ٢٦). ومن بغداد كان تُصدَّر المنسوجات القطنية، والحريية، لا سيما المناديل، والأزر والعمائم، والبلور المصقول، والأدوات الزجاجية، والزيت، والأدوية السائلة، والمعاجين المختلفة (حدود العالم، النسخة الخطية، الورقة ١١ و؛ محمد المقدسي، ص ١٢٨). كانت بغداد تُصدَّر كذلك الأثواب المتنوعة الألوان، والعمائم الرقيقة النسيج، والفوط المشهورة (الدمشقي، ص ٢٦). ولم يكن لأثوابها البيضاء الناعمة الرقيقة مثل في أي مكان آخر (ابن الفقيه، ص ٢٥٤). ومن الأقمشة البغدادية المشهورة: السقلاطون (قماش حريري)، والمُلحَم والعتابي (قماش من الحرير والقطن) (حدود العالم، ص ١٣٨؛ النويري، مج ١، ص ٣٦٩؛ محمد المقدسي، ص ٣٢٣؛ ابن حوقل، مج ١، ص ٢٦١). وكانت السيوف

التي تُصنع في باب الطاق مرغوبة جدًا (القرطبي، ص ٥٠). كما اشتهرت بغداد بصناعة الجلود والورق.

كان السبب الأساسي الكامن وراء ازدهار التجارة والصناعة في بغداد، نمو القطاع المصرفي، وهذا الأمر واضح من أنشطة الصرافين والدالّين والوسطاء (الجهابذة)، وكان للصرافين أسواقهم الخاصة في الكرخ (← الجهشياري، ص ٢٢٨)، وكانوا يقدمون الخدمات لعامة الناس بالدرجة الأولى، أما الجهابذة فكانوا يعملون في خدمة الدولة ورجالها.

كانت بغداد من حيث التنوع السكاني مدينة عالمية، سكانها متعدّدو الأجناس والأعراق والألوان والأديان والمذاهب، قصدوا المدينة للعمل، أو التجارة، أو الدخول في الجيش، أو عبيدًا. والمثير للانتباه أنّ عوامّ الناس، كان لهم - وإنّ تدريجيًا - دورٌ مهمٌ في حيوية المدينة (ابن الأثير، مج ٨، ص ٨٥-٨٦؛ مسكويه، مج ١، ص ٧٤-٧٥). لقد حاولوا بكلّ ما ملكوا من قوّة وجهد أنّ يخدموا الفتنة التي أعقبت قتل الأمين (← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ١٠٠٩-١٠١٠؛ ابن الأثير، مج ٦، ص ٢٢٨-٢٢٩، مج ٧، ص ١٣-١٤)، وفي العام ٣٠٧هـ ثاروا احتجاجًا على ارتفاع الأسعار، وفي هذه المرحلة التاريخية بدأ نشاط العيّارين* و«الشطار» (← الطبري، السلسلة الثالثة، ص ١٠٠٨، ١٥٨٦؛ المسعودي، المروج، مج ٦، ص ٤٥٧-٤٦١ وما بعدها).

هنالك صعوبة شديدة في تحديد عدد سكّان بغداد. فقد أعلن في العام ٣٨٣هـ أنّ عدد حمّاماتها العامّة بلغ ١٥٠٠ باب. وتقول الروايات إنّ كلّ حمّام كانت تستخدمه ٢٠٠ عائلة (ابن الفقيه، الورقة ٥٩ ظ- ٦٠ و؛ هلال الصابي، ص ٢٩). وإنّ كان متوسط عدد أفراد العائلة الواحدة خمسة، معنى ذلك أنّ عدد سكّان بغداد كان حوالي مليون ونصف. أمر المقتدر سنان بن ثابت أنّ يمتحن الأطباء، وأنّ لا يُعطي إذنًا بمزاولة المهنة، إلّا لمن كان جديرًا بذلك، وكانت النتيجة أنّ سُمِحَ لـ ٨٦٠ طبيبًا بمزاولة الطبّ (ابن الأثير، مج ٨، ص ٨٥؛ ابن أبي أصيبعة، مج ١، ص ٢٢١ وما بعدها، ٢٢٤، ٣١٠؛ القفطي، ص ١٩٤ وما بعدها). وإذا حسبنا الأطباء الذين كانوا يعملون في مشافي الدولة، وأولئك

الذين لا يحملون الإذن لممارسة المهنة، لوصول العدد إلى ألف طبيبٍ تقريبًا. وبالإمكان أن نقدر عدد الذين صلّوا جماعة في آخر يوم جمعة من الشهر في مسجد المنصور ومسجد الرّصافة، بـ ٦٤٠٠٠ نسمة، إذا أخذنا في الاعتبار مساحة مكان الصلاة (ابن الفقيه، الورقة ٦٢ و؛ الطبري، السلسلة الثالثة، ص ١٧٣٠). وقد بلغ عدد المراكب في أواخر القرن الثالث الهجري، ٣٠٠٠٠ مركب (ابن الجوزي، المناقب، ص ٢٤). انطلاقًا من هذه الأرقام ومن مساحة بغداد، يمكن أن نخمن أن سكّان بغداد في القرن الرابع الهجري كان عددهم حوالي المليون ونصف المليون. وهذا هو الرقم الذي ذكره الإتيدي، أحد معاصري تلك المرحلة.

كان في بغداد أحياء خاصّة بالأشراف والطبقة الأرستقراطية، مثل: الظاهر، والشّماسيّة، والمأمونيّة، ودرّب عون. وهناك أحياء كان جميع سكّانها من الفقراء كحلّة قطيعة الكلاب، ونهر الدجاج. كانت منازل الأشراف ذات طبقتين، لكنّ منازل عامّة الناس كانت من طبقة واحدة. وكان في منازل الأشراف حُمام يُقسم عادة إلى ثلاثة أقسام، مفصولة عن بعضها بالجدران العالية: جناح النساء، وغرف الاستقبال، والقسم المخصّص للخدم. وكان هنالك اهتمام كبير بحدائق المنازل (أبو الفرج الإصفهانّي، مج ٢، ص ٧٣، مج ٣، ص ٣١، مج ٥، ص ٣٨، مج ٩، ص ١٤٤، مج ١٧، ص ١٢٩؛ هلال الصابي، ص ٣٢). وكان أثاث المنازل يتألّف من السجاد والبسط، والمقاعد، والستائر، والأرائك. وفي الصيف كان الناس يقيمون في المنازل اللطيفة المناخ وفي السراييب، أو يستخدمون المراوح (← الممدور، ص ٣٠، ١١٧). وزُخرفت أعتاب الأبواب بالكتابات وبصور الحيوانات والنباتات، أو الإنسان (م.ن، ص ٢٩). وكانت السمّة الأساسيّة اللافتة في بغداد، هي كثرة مساجدها وحماماتها.

كانت بغداد تعدّ المركز الثقافي الأكبر، وموطن المذاهب الفقهيّة لا سيّما المذهب الحنبلّي والحنفيّ. كما كان بيت الحكمة* ومحيطه مركزًا للترجمة، ولبعض التجارب العلميّة. وكانت مساجد بغداد لا سيّما جامع المنصور، مراكز دراسيّة وبحثيّة. ومما يدلّ على ارتفاع مستوى الأنشطة الثقافيّة في بغداد العدد الكبير لدكاكين الوزّاقين

التي كانت تؤدّي أحياناً دور المحافل الأدبيّة. ضمتّ بغداد عدداً كبيراً من الشعراء والمؤرّخين والعلماء، وبإمكاننا من خلال مراجعة تاريخ بغداد للخطيب البغداديّ، أن نتبيّن العددَ الكبير لعلماء بغداد في جميع الحقول. لم يقتصر تشجيع العلماء على الخلفاء وحدهم، وإمّا تعدّاهم إلى الوزراء وكبار القوم. إنّ العصر الذهبيّ للثقافة والحضارة الإسلاميّتين مرتبط ببيّنا. وقد أسّست فيها مكاتب عامّة - كمراكز للمطالعة وتحصيل العلوم -، أشهرها دار العلم لأبي نصر شابور بن أردشير. وحين وُلدت «المدرسة» كانت بغداد السبّاقة بمدارسها النظاميّة والمستنصريّة، كما أثّرت في برامج المدارس ومناهجها وهندستها المعماريّة.

بُذِلَ كذلك الكثير من الاهتمام بدور الشفاء [البيمارستانات]، لا سيّما في القرنين الثالث والرابع الهجريّين؛ ومن بين المستشفيات الأكثر شهرةً: مستشفى السيّدة (٣٠٦هـ)، والمستشفى المقتدريّ (٣٠٦هـ)، والمستشفى العضديّ* (٣٧٢هـ). كما أنّ الوزراء وكبار الشخصيّات ساهموا في تأسيس المستشفيات، وكان عمل الأطباء يخضع للمراقبة والتفتيش في مهلٍ زمنيّة محدّدة (← الأسطر السابقة).

في عهد هارون الرشيد، كان في بغداد ثلاثة جسور (اليقوبيّ، ١٨٨٣م، مج ٢، ص ٥١٠)، أحد الجسرين المشهورين كان بحذاء باب خراسان، والآخر في الكرخ (← م.ن، ص ٥٤٢؛ الجهشياريّ، ص ٢٥٤؛ الطبريّ، السلسلة الثالثة، ص ١٢٣٢). بنى هارون جسرين في الشّماسيّة، هُدّما في بداية الحصار (ابن الجوزيّ، المناقب، ص ٢٠؛ ابن الفقيه، الورقة ٤٢ و). وفي أواخر القرن الثالث، كانت هنالك ثلاثة جسور لا تزال قائمة (ابن الفقيه، م.ن، ص.ن). والظاهر أنّ الجسر الشماليّ كان قد تهدّم، لأنّ الاصطخريّ لم يذكر سوى جسرين اثنين (ابن الجوزيّ، م.ن، ص.ن، الاصطخريّ، ص ٨٤). وفي العام ٣٨٧هـ بنى بهاء الدولة جسراً في سوق الثلاثاء (مشرّعة القطّانين)، كان هو الجسر الثالث، مما يدلّ على تحوّل الاهتمام من شماليّ بغداد إلى سوق الثلاثاء (ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٧، ص ١٧١؛ ← ابن الجوزيّ، المناقب، م.ن، ص.ن؛ الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ١١٦).

ظلت الحياة في بغداد آمنة هائلة حتى عصر الأمين. وعلى إثر المحاصرة الأولى للمدينة ظهرت العناصر المشاغبة من «العامّة». وفي الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ساهم السيل والحريق في تفاقم الأوضاع المضطربة، فقد هدم السيل في العام ٢٧٠هـ حوالي سبعة آلاف منزل، وفي العامين ٢٩٢ و٣٢٨هـ لحقت أضرار جسيمة ببغداد من جراء السيول (الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٢١٠٥؛ ابن الأثير، مج ٨، ص ٣٧١؛ ابن تغري بردي، مج ٣، ص ١٥٧، ٢٦٦). في العام ٣٣٣هـ عبّر السيل باب الكوفة ودخل بغداد (الصولي، ص ٢٧٨؛ الخطيب البغدادي، مج ١، ص ٧٦). كما أنّ عدم الاهتمام بالأنهار، لا سيّما في عصر «أمير الأمراء» (٣٢٤-٣٣٤هـ) أدّى إلى فيضان المياه، وتهدّم منطقة بادوريا (مسكويه، مج ٢، ص ٩؛ الصولي، ص ١٠٦، ١٣٧-١٣٨، ٢٢٥). وكانت النتيجة أنّ القحط والطاعون، اللذين قلّما أصابا المدينة قبل العام ٣٢٠هـ تكرر وقوعهما بعده (← ابن الأثير، مج ٧، ص ١٧٧، ١٨٧، ٣٣٨). كان القحط في العام ٣٠٧هـ ناجمًا عن الاحتكار لذلك سرعان ما لجّم ووضع حدّ له. لكنّ حالات القحط التي تكرّرت في الأعوام ٣٢٣ و٣٢٦ و٣٢٩ و٣٣٠ و٣٣١هـ (وصاحبها الطاعون)، و٣٣٢ و٣٣٧هـ كدّرت حياة الناس وجعلتها غير محتملة (الصولي، ص ٦١، ١٠٤، ٢٣٦، ٢٥١؛ ابن الأثير، مج ٨، ص ٢٨٢، ٣١١؛ ابن تغري بردي، مج ٣، ص ٢٧٠، ٢٧٤). وفي العامين ٣٠٨ و٣٠٩هـ لحقت بالكرخ أضرار لا تحصى بسبب الحريق (ابن الأثير، مج ٨، ص ٨٩، ٩٥). وفي العام ٣٢٣هـ حدث في الكرخ حريق تسرّبت نيرانه إلى محلات العطارين، والزياتين، والصاغة وغيرها، وظلّت آثاره بيّنة لسنوات تالية عديدة (الصولي، ص ٦٨). في عهد البويهيين كانت بغداد تعيش حالة من أشدّ الحالات صعوبة في تاريخها. لذلك عمّد معرّ الدولة (في العام ٣٣٥هـ)، أن يرّم بعض أنهار بادوريا، فساعد ذلك على تحسين الأوضاع المعيشية (مسكويه، مج ٢، ص ١٦٥). جاءت بعد ذلك مرحلة من قلّة الاكتراث، فالحق الخراب بعدد كبير من الأنهار التي كانت تؤمّن مياه الشرب لغربيّ بغداد. وبأمر من عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٢هـ)، نُظّفت مجاري الأنهار، ورُمّمت الجسور والسدود (م.ن، مج ٢، ص ٤٠٦، مج ٣، ص ٦٩؛ ابن الأثير، مج ٨، ص ٥١٨). بعد

هذا التاريخ، لا تقع العين على أي ذكر لمثل هذه الأعمال.

كانت الأعمال العمرانية محدودة. ففي العام ٣٥٠هـ بنى معز الدولة قصرًا شاهقًا في باب الشماسية، ذا ميدان واسع، وأنبار، وحدائق غناء. وقد نقل إلى هذا القصر البوابات السبع من المدينة المدورة، وأنفق على أعمال البناء حوالي مليون دينار (أحد عشر مليون درهم)، لكن هذا القصر تهدم في العام ٤١٨هـ (التنوخية، نشوار، مج ١، ص ٧٠-٧١؛ ابن الأثير، مج ٨، ص ٣٩٧-٣٩٨، مج ٩، ص ٢٥٦). رمم عضد الدولة منزل سبكتكين، حاجب معز الدولة، في المخرم العليا، وأضاف إليه حدائق واسعة، وأنفق على جر المياه إليه من نهر الخالص بواسطة الترغ، ميزانية باهظة. وتحول هذا المكان إلى دار الإمارة، المقر الرسمي لآل بويه (الخطيب البغدادي، مج ١، ص ١٠٥-١٠٦؛ ابن الجوزي، المنتظم، مج ٧، ص ٧٧-٧٨؛ مسكويه، مج ٣، ص ١٢٤). ولما رأى عضد الدولة أن بغداد باتت قبيحة المظهر، أصدر أمرًا بترميم المنازل والأسواق، وأنفق مالا كثيرا على إعادة تعمير المسجد الجامع. كما أعاد تجديد بناء الأنبار على ضفاف دجلة، وأمر الأغنياء بترميم منازلهم القريبة من دجلة، أما القصور التي لا أصحاب لها، فقد حوّلت إلى حدائق عامة، كما أنه أعاد تعمير الجسر المركزي، حين عاين ضيقه وخرابه، فخرج في حلة جديدة (ابن الأثير، مج ٨، ص ٥٥٨؛ ابن الجوزي، م.ن، ص.ن، مج ٧، ص ١١٤؛ مسكويه، مج ٢، ص ٤٠٤-٤٠٦). في العام ٣٧٢هـ بنى المستشفى العضدي، وعين له الأطباء والمشرفين وأمناء المستودعات، وجّهزه بمقدار كبير من الأدوية، والوسائل والتجهيزات الطبية، ووقف له الأموال لصيانته ولضمان استمرارية العمل فيه (ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ١١٢-١١٤).

تراجعت بغداد في زمان آل بويه تراجعًا كبيرًا (ذكر التنوخية أن مساحتها في العام ٣٤٥هـ كانت عشر مساحتها في عصر المقتدر؛ نشوار، مج ١، ص ٦٦). لقد أهملت مدينة [الخليفة] المنصور، وفقدت حياتها ورونقها (محمد المقدسي، ص ١٢٠). ومعظم الأحياء في غربي بغداد تهدمت وضاقت مساحتها. كان حي الكرخ، هو الأكثر عمرانًا في غربي بغداد، وكان التجار يملكون فيه مصادر أرزاقهم، ولهذا السبب كان الجزء

الغربيّ في ذلك العصر يُسمّى الكرخ (ابن حوقل، ج ١، ص ٢٤١-٢٤٢؛ محمّد المقدسيّ، م.ن، ص.ن).

كان القسم الشرقيّ من المدينة أكثر عمراناً، يسكنه علية القوم والأشراف (← ابن حوقل، مج ١، ص ٢٤٠). في هذا الجزء كانت الأماكن الجديرة بالمشاهدة هي: باب الطاق، المكان الذي كانت تقام فيه السوق الكبرى؛ دار الإمارة في المُخَرَّم، وقصور الخليفة في أقصى الجنوب منه (← محمّد المقدسيّ، م.ن، ص.ن؛ ابن حوقل، مج ١، ص ٢٤٠-٢٤١؛ الاضطخريّ، ص ٨٤). وكانت المنازل المنفردة تصل إلى حيّ كَلوآذا*، يذكر ابن حوقل أنّه حين زار بغداد رأى فيها أربعة مساجد جامعة: مسجد المنصور، مسجد الرُصافة، مسجد بَرَاثا، ومسجد دار السلطان (مج ١، ص ٢٤١).

بعد ذلك تحوّل مسجد القطيعة في العام ٣٧٩هـ ومسجد الحرّبيّة في العام ٣٨٣هـ إلى مسجدين جامعين (ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٧، ص ٦٧١؛ نفسه، المناقب، ص ٢١-٢٢؛ الخطيب البغداديّ، مج ١، ص ١١٠-١١١؛ ابن كثير، مج ٩، ص ٤٨). شاهد ابن حوقل جسرين قال إنّ أحدهما غير جدير بالمشاهدة (م.ن، ص.ن). والظاهر أنّ ثلاثة جسور كانت موجودة في زمان معزّ الدولة (أحدهما في باب الشَّماسيّة بالقرب من قصره، والآخر في باب الطاق، والثالث في سوق الثلاثاء). فهو قد انتقل في البداية إلى باب الطاق، وأقام فيها جسرين، تخرب أحدهما ولم يعد صالحاً للاستعمال في ما بعد (ابن الجوزيّ، المناقب، ص ٢٠).

لقد ألحقت الفوضى الناجمة عن شغب العامّة والعيّارين، الكثير من الأضرار بمدينة بغداد، وقد أفاضت المصادر في الحديث عن جهل العامّة، واستعدادها لاعتناق أيّ دعوة تُعرض عليها، وعن نقاء فطرتها، وسرعة تمردّها (← المسعوديّ، المروج، مج ٥، ص ٨١-٨٣، ٨٥-٨٧؛ الغزاليّ، ص ٥٣؛ ابن الجوزيّ، م.ن، ص.ن، ص ٣١-٣٢؛ البغداديّ، ص ١٤١). في العام ٢٧٩هـ منع المعتضد «القُصّاص» و«العُرّافين» من الجلوس في المعابر والمساجد، كما منع الناس من التجمّع حولهم، أو مجادلتهم (ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٥، ص ١٢٢، ١٧١). قبل استلام البويهيين للسلطة، أثار الحنابلة الفتنة، حين اعتمدوا

القوة سبيلاً لإصلاح أخلاق الناس (ابن الأثير، مج ٨، ص ٨٤-٨٥، ١٥٧-١٥٨، ٢٢٩-٢٣٠؛ الصولي، ص ١٩٨). في هذا العصر زادت الفتن والنزاعات المذهبية، وأدت إلى خسائر كبيرة في الأرواح والأموال. وأعلن آل بويه يوم العاشر من المحرم يوم حداد عام؛ فكانت تُقفل الأسواق، ويخرج الناس جماعات جماعات، والنساء يلطن رؤوسهن ووجوههن (ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ١٥). من ناحية أخرى أعلنوا يوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة، يوم عيد وسرور. هذا الأمر دفع أهل السنة إلى اختيار يومين مختلفين، يأتي تاريخ كل واحد منهما بعد التاريخين المذكورين سابقاً بثمانية أيام (ابن الأثير، مج ٩، ص ١١٠). بداية هذه النزاعات، تعود إلى العام ٣٣٨هـ يوم تعرض الكرخ للاجتياح (ابن الجوزي، م.ن، مج ٦، ص ٣٦٣). وأدت الاشتباكات بين الفريقين في العام ٣٤٨هـ إلى تعرض باب الطاق للخراب واشتعال الحرائق فيه (م.ن، مج ٦، ص ٣٩٠). وفي العام ٣٦١هـ أدى الاضطرابات في محلة الكرخ إلى احتراقها وهلاك ١٧٠٠٠ نسمة، واحتراق ٣٠٠ دكان، وعدد كبير من المنازل ٣٣ مسجداً (ابن الأثير، مج ٨، ص ٢٠٧؛ ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ٦٠). في العام ٣٦٣هـ أباد الحريق الجزء الأكبر من الكرخ (مسكويه، مج ٢، ص ٣٢٧). وفي العام ٣٨١هـ حصلت فتنة أخرى، ذهبت فيها معظم المحلات طعممةً للنيران (ابن الأثير، مج ٩، ص ٣١). في العام ٤٥٣هـ احترق نهر الطابق، وباب القطن، والجزء الأعظم من محلة باب البصرة (م.ن، مج ٩، ص ١٠٢، أيضاً (م.ن، مج ٨، ص ١٨٤، ١٨٤، ٢٥-٢٦، ٣٢، ٥٨). في العام ٤٢٢هـ هُدمت معظم الأسواق في الاضطرابات (ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ٥٥)؛ وفي الربع الأخير من القرن الرابع وحتى أواخر هذه المرحلة أشعل العيارون الكثير من الفتن والاضطرابات (حول فاعليتهم في المرتين اللتين حوصرت فيهما بغداد (ابن الطبري، السلسلة الثالثة، ص ٨٧٧، ١٠٠٨-١٠١٠، ١٥٥٢، ١٥٥٦-١٥٥٧؛ المسعودي، المروج، مج ٦، ص ٤٥ وما بعدها). لقد أساء المؤرخون في التعبير عن أفعال العيارين، ووصفهم بقطع الطرق واللصوص، لكن حركتهم كان سببها وضعهم الحياتي الصعب، والهرج والمرج والفوضى السياسيّة. لقد ثاروا في وجه أصحاب السلطة والحكام والأغنياء، لذلك استهدفوا بأعمالهم، المقننين والتجار

وقوى الأمن، والأشراف (← التنوخي، الفرّج، مج ٢، ص ١٠٦-١٠٨؛ ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ١٧٤، ٢٢٠؛ ابن الأثير، مج ٩، ص ١١٥). كانوا ملتزمين ببعض القيم الأخلاقية كالشرف ومساعدة المحتاجين والفقراء والنساء، والتعاون، والصبر، والاستقامة (ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص ٣٩٢؛ نفسه، المنتظم، مج ٨، ص ٧٧؛ القشيري، ص ١١٣-١١٤؛ التنوخي، م.ن، مج ٢، ص ١٨٠). وفي القرن الرابع الهجريّ تشكّلت مجموعات، كان من بين ألقاب رؤسائها، المتقدّم والقائد والأمير، وكانت هناك مراسم خاصّة يجب أن يجتازها كلّ من يريد الانضمام إلى إحدى هذه المجموعات (← ابن الجوزي، المنتظم، مج ٨، ص ٤٩، ٧٨، ١٥١؛ مسكويه، مج ٢، ص ٣٠٦؛ القشيري، ص ١١٣؛ التنوخي، م.ن، مج ٢، ص ١٠٩). وكانت المجموعة تنقسم تلقائيًا إلى فرقتين واحدة شيعيّة والأخرى سنّيّة. كان الناس يعيشون حالة رعب دائم من العيّارين. وكان العيّارون يفرضون الإتاوات على الناس في الطرق والأسواق، ويسرقون الأموال من قطع الطرق، ويغيرون ليلاً على المنازل؛ ويحملون على الناس بالسيوف، ويحرقون المنازل والأسواق، وقد أحرقوا أحياء وأسواق عديدة لا سيّما في باب الطاق وسوق يحيى (في شرقيّ بغداد) والكرخ، حيث يتواجد الأغنياء. كان الناس مجبرين على إقفال بوابات المداخل إلى حاراتهم، وكان التجّار يوظفون حراسًا لمتاجرهم. أدّى كلّ ذلك الهرج والمرج والفوضى إلى ارتفاع الأسعار (ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ١٥١، ٢٢٠، مج ٨، ص ٢١-٢٢، ٤٤، ٤٧-٥٠، ٥٤-٥٥، ٦٠، ٧٢-٧٥، ٧٩، ٨٧، ١٤٢، ١٦١). كان أحد الوعّاظ في العام ٤٢١هـ يلهج بهذا الدعاء: «اللهم، احم ممتلكات الناس من العوامّ والأوباش» (ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ٤٤). لقد حَكَمَ البرُجمي وهو أحد قادة العيّارين من ذوي السمعة السيئة، بغدادَ عملياً لمدة أربع سنوات (٤٢٢-٤٢٥هـ)، وألحق بها أضراراً فادحةً وخراباً لا يوصف (م.ن، مج ٨، ص ٧٥-٧٦). كانت الدولة عاجزة لا حول لها ولا طول (← م.ن، مج ٨، ص ٤٩) وقد سمحت لهم أن يتقاضوا الضرائب والإتاوات من الناس، لتأمّن شروهم (م.ن، مج ٨، ص ٧٨). غادر عددٌ كبير من الناس أحياءهم، وفرّوا إلى نقاط آمنة (م.ن، مج ٨، ص ١٤٢). وقد استمرّ الرعب والخوف من العيّارين إلى حين استلام

السلاجقة زمام السلطة (م.ن، مج ٨، ص ١٦١).

في العام ٤٤٧هـ دخل طغرل بيك بغداد، وكان السلاجقة على العكس من البويهيين يدعمون أهل السنة (← ابن تغري بردي، مج ٥، ص ٥٩). في العام ٤٥٠هـ احتلّ البساسيري* بغداد باسم الفاطميين (← أبو الفداء، مج ٢، ص ١٨٦؛ ابن القلانسي، ص ٨٧)، لكنّه هُزم على أيدي السلاجقة في العام ٤٥١هـ وقتل (أبو الفداء، مج ٢، ص ١٨٧-١٨٨). في هذه المرحلة اتخذت بغداد وضعًا معيّنًا، لم يطرأ عليها بعده أيّ تغيير يذكر.

في العام ٤٤٨هـ وسّع طغرل بيك دار الإمارة، وهدم عددًا كبيرًا من المنازل والدكاكين، وأعاد بناءها من جديد، وبنى حولها سورًا (ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ١٦٩). في العام ٤٥٠هـ اندلعت النيران في دار الإمارة وأعيد بناؤه من جديد (ابن الجوزي، م.ن، مج ٧، ص ٧٧٨) واشتهر باسم دار المملكة. وفي العام ٥٠٩هـ أُعيد بناؤه، لكنّه ذهب في العام ٥١٥هـ طعمه للحريق صدفةً، وبُني مكانه قصر جديد (ابن الجوزي، المناقب، ص ١٦؛ نفسه، المنتظم، مج ٩، ص ٢٢٣). في العام ٤٨٤هـ وسّع ملكشاه مسجد المخرّم القريب من القصر ورّممه، اشتهر هذا المسجد في ما بعد باسم جامع السلطان، وقد رُمّم في العام ٥٠٢هـ (ابن الجوزي، المنتظم، مج ٩، ص ١٥٩) واستُكمل بناؤه في العام ٥٢٤هـ (أبو الفداء، مج ٢، ص ٢١١؛ ابن الجوزي، المناقب، ص ٢٣؛ ابن تغري بردي، مج ٥، ص ١٣٥).

تمركز النشاط في شرقيّ بغداد في محيط قصور الخلفاء، وقد شجّع المقتدي (٤٦٧-٤٨٧هـ) الناس على بناء المنازل؛ فظهرت أحياء في ضواحي القصور - كالبصليّة، والقطيعة، والحلبّة، والأجمة. كما شيّد قصر ساحليّ (دار الشاطبيّة) بمحاذاة قصر التاج القديم (ابن الجوزي، المنتظم، مج ٨، ص ٢٩٣؛ ابن الأثير، مج ١٠، ص ١٥٦؛ ← لسترنج، ص ٢٥٣؛ ابن الفوطي، ص ٢١). وفي العام ٥٢٤هـ هُدّم قصر التاج، وأُعيد بناؤه من جديد (ابن الجوزي، م.ن، مج ١٠، ص ١٤). هذه الأحياء التي لم تكن مسورةً تعرّضت في العام ٤٦٢هـ إلى أضرار فادحة من جرّاء السيول. وفي العام ٤٨٨هـ بنى

المستظهر سوراً حول الأحياء المعروفة باسم الحريم، رَمَّمه المسترشد في العام ٥٠٧هـ وأضاف إليه أربع بوابات، وجعل عرضه ٢٢ ذراعاً. اجتاحت السيول أطراف السور في العام ٥٥٤هـ واخترقته، فتهدّمت معظم الأحياء. رُمَّم السور في ما بعد، وبدأ العمل على بناء سدٍّ حوله، استُكمل في ما بعد (← ابن الجوزي، المناقب، ص٣٤؛ نفسه، المنتظم، مج١٠، ص١٨٩-١٩٠). وفي عهد الناصر والمستنصر، جرت محاولات أخرى إمّا لبناء السور أو ترميمه (ابن الفوطي، ص١٦، ١١١). وقد ثبّت هذا السور الحدود الشرقية لبغداد حتى نهاية العصر العثمانيّ.

كانت بغداد في هذه المرحلة التاريخية في حالة انحطاط، تنام على ذكرى ماضيها المجيد. وقد طرأ الكثير من التغيير في النصف الثاني من القرن الخامس الهجريّ على شكلها العامّ. فقد تهدّمت أحياء عديدة في غربيّ المدينة، وتحوّلت حدائقها الغناء وبيوتها القديمة إلى أرض قاحلة (← الخطيب البغداديّ، مج١، ص١١٩؛ التنوخي، مشوار مج١ ص٧٤-٧٥). ولعلّ هذا الأمر يوضّح سبب زيادة عدد المساجد الجامعة فيها. وقد هُجرت أحيائها القديمة: الشَّمَّاسِيَّة، والرُّصَافَة، والمُخَرَّم (← ابن حوقل، مج١، ص٢٤١).

زار بنيامين التيطليّ^(١) [من أهل طَلَيْطَلَة]، حوالي العام ٥٦٧هـ/١١٧١م بغداد، وتحدّث عن عظمة قصر الخليفة، وسوره وحديقة الحيوان وحدائقه الأخرى، وبركته، كما وصف بإعجاب المستشفى العَضُدِيّ وأطبائه السِّتِيْن، ومركز النقاهاة المخصّص للمصابين بأمراض نفسيّة. وذكر كذلك أنّه وجد في بغداد أربعين ألف يهوديّ، لديهم عشر مدارس (مج١، النصّ الأصليّ، ص٥٤-٦٤؛ الترجمة الإنجليزيّة، ص٩٣-١٠٥؛ الترجمة العربيّة، ص١٣١-١٣٨). وفي العام ٥٨١هـ وصف ابن جُبَيْر بغداد، وتكلّم على ما أصابها من انحطاط عامّ، منتقداً قلّة النخوة لدى سكّانها (ص١٩٤). وعلى الرغم من الخراب الذي حلّ بالجزء الأعظم من شرقيّ المدينة، كانت تضمّ سبع عشرة محلّة منفصلة، في كلّ حيٍّ منها حمّان، أو ثلاثة أو ثمانية (ص٢٠١). وكان حيّ الخليفة بما

(1) Benjamin of Tudela

يضمّ من قصور وحدائق يغطّي ربع مساحة المدينة أو أكثر من ذلك (ص ٢٠٢)، وصَفَ هذا الجزء من المدينة بأنه أهلٌ بالسكّان، وأسواقه مزدهرة (ص ٢٠٣-٢٠٤)، وأنَّ حيّ القُرّيّة، أكبر الأحياء، يقع (على الأرجح بين جسر الأحرّاس ورأس القُرّيّة) وبالقرب منه حومة ربض المربّعة (وهي على الأرجح بالقرب من حيّ السيّد سلطان الحالي). كان في هذه المحلّة ثلاثة مساجد جامعة أيضًا هي: جامع السلطان في شماليّ السور، ومسجد الرّصافة على بعد حوالي ميل إلى الشمال منه، وجامع الخليفة (ص ٢٠٤). وكان يوجد في هذه المحلّة حولي ثلاثين مدرسة عالية البنّان، لديها الكثير من الأوقاف، للإنفاق على صيانتها، وعلى نفقات الطلبة. أشهرها المدرسة «النظاميّة» التي جُدّد بناؤها في العام ٥٠٤هـ (ص ٢٠٥). وذكر ابن جُبَيْر كذلك، أنّ السور الذي بناه المسترشد حول الشريقيّة كان فيه أربعة أبواب: باب السلطان (في الشمال) وهو الذي اشتهر في ما بعد باسم باب المعظّم؛ وباب الظفريّة (في الشمال الشرقيّ) سُمّي في ما بعد الباب الوسطانيّ؛ وباب الحلبّة (في الشرق) سُمّي في ما بعد باب الطلّسم؛ وباب البصليّة (في الجنوب) سُمّي في ما بعد الباب الشرقيّ. كان السور المحيط بالشريقيّة نصف دائريّ، يصل طرفاه إلى دجلة (م.ن، ص.ن). وتكلّم كذلك على حيّ أبي حنيفة الأهل بالسكّان؛ أمّا الأحياء القديمة أي الرّصافة، والشّماسيّة، والقسم الرئيسيّ من المخرّم فقد كانت مهذّمة (← ص ٢٠٢؛ ابن حوقل، م.ن، ص.ن). في غربيّ بغداد، كان الخراب عامًّا، ومن أحياء هذا القسم يصف محلّة الكرخ بأنها مدينة مسوّرة، ومحلّة باب البصرة التي تضمّ المسجد الجامع، وأطلال المدينة القديمة (ص ٢٠١). كانت محلّة الشارع تقع بمحاذاة دجلة، وتشكّل مع الكرخ وباب البصرة والقُرّيّة، الأحياء الأكبر في مدينة بغداد (م.ن، ص.ن). وبين محلّة الشارع وباب البصرة، كانت محلّة سوق المارستان، تشبه المدينة الصغيرة، وفيها المستشفى العضديّ المشهور، الذي كان مزودًا بالأطباء والعَمّال ومختلِف التجهيزات الطبيّة (م.ن، ص.ن). وقد لفت نظره من سائر الأحياء: محلّة الحربيّة التي تقع في أقصى الشمال من هذا القسم، والعتابيّة المشهورة بسبب الأقمشة العتابيّة التي كانت تنسج فيها (ص ٢٠٢). وكان في بغداد بحسب ابن جُبَيْر

(ص ٢٠٤) ألفا حمّام وأحد عشر مسجدًا جامعًا.

في عصر المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ)، كان هنالك جسر بالقرب من نهر عيسى، نُقل بعد ذلك إلى باب القُريّة. وفي عصر المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ) بُني جسرٌ جديدٌ في باب القُريّة، وأعيدَ الجسر القديم إلى مكانه الأوّل بالقرب من نهر عيسى. وابن جُبَيْر لم يرَ إلاّ الجسر الأوّل، ولكنّه يصرّح أنّ القاعدة أنّ يكون هنالك جسران، ويؤكّد هذه النقطة ابنُ الجوزيّ الذي ألف كتابه قبل سقوط بغداد (ابن الجوزي، المناقب، ص ٢٠؛ ابن جُبَيْر، ص ٢٠١).

بعد ذلك بنصف قرن، يقدّم ياقوت (٦٢٣هـ) معلومات مفيدة. فهو يشير إلى أنّ غربيّ بغداد، يتشكّل من مجموعة أحياء مجزأة، لكلّ منها سور، وتفصلها عن بعضها أطلال الخرائب المتراكمة. ومن أحيائها المشهورة الحربيّة والحريم الطاهريّ في الشمال، والسوج الأربعة والنصيريّة والعتّابيين ودار القزّ في الجنوب الغربيّ، والمحوّل في الغرب، وقصر عيسى في الشرق، والقُريّة والكرخ في الجنوب.

أما في شرقيّ بغداد فكانت الحياة متمركزة في الأحياء المحيطة بدار الخلافة، التي تغطّي تقريبًا ثلث المساحة المسوّرة. ومن بين أحيائها الواسعة والعامرة باب الأزج وأسواقه، المأمونيّة في جواره، سوق الثلاثاء، ونهر المَعلى والقُريّة (ياقوت الحَمَويّ، مج ١، ص ٢٣٢، ٤٤١، ٤٤٤، ٥٣٤، ٦٥٥، مج ٢، ص ٨٨، ١٦٧، ٢٣٤، ٤٥٩، ٥١٢، ٧٨٣، ٩١٧، مج ٣، ص ١٩٣-١٩٤، ١٩٧، ٢٣١، ٢٧٩، ٢٩١، ٤٨٩، مج ٤، ص ١١٧، ٢٥٢، ٢٥٥، ٣٨٥، ٤٣٢، ٤٥٧، ٧١٣-٧١٤، ٧٨٦، ٨٤١، ٨٤٥).

في هذه المرحلة التاريخيّة زاد عدد المساجد الجامعة في بغداد الغربيّة، مما يدلّ على الوضع شبه المستقلّ للأحياء. وقد ذكر ابن الجوزيّ بين العامين ٥٣٠ و٥٧٢هـ فضلًا عن جامع المنصور أسماء ستة مساجد أخرى (المناقب، ص ٢٣؛ أيضًا ← ابن الفُوطيّ). أمّا مساجد الكرخ فقد رُمّت بأمرٍ من المستنصر (ابن الفُوطيّ، ص ١٥)، ورُمّم جامع القصر في العام ٤٧٥هـ ومرةً أخرى في العام ٦٣٢هـ بأمرٍ من المستنصر أيضًا (ابن الجوزيّ، المنتظم، مج ٩، ص ٣؛ لسترنج، ص ٢٦٩). ومسجد القمريّة (الذي لا

يزال قائماً حتى اليوم) بُني في العام ٦٢٦هـ (ابن الفُوطيّ، ص٤).
 يمكننا كذلك أن نكوّن فكرة عن مدى قوّة التصوّف من العدد الكبير للرباطات
 التي بُنيت في القرن الأخير للخلافة. فالخلفاء أو أقاربهم هم الذين بنوا هذه الرباطات
 ← م.ن، ص٢، ٧٤-٧٥، ٧٩-٨٠، ٨٧، ١١٧، ٢٦١؛ ابن الجوزيّ، م.ن، مج٩، ص١١؛ ابن
 الأثير، مج١١، ص٣٣، ٧٧، مج١٢، ص٢٧، ٤٧-٦٨).

كذلك، كان هنالك اهتمام كبير بتأسيس المدارس. فهذه النهضة التي يمكن عدّها
 في البداية إحياءً للفكر الديني بين الشافعيّين، وحاجةً سياسيّة وديوانيّة، استمرّت في
 ما بعد نهضة ثقافيّة. وقد شاهد ابن جُبَيْر ثلاثين مدرسة في شرقيّ بغداد (ص٢٠٥؛
 أيضًا ← م. جواد، مج٥، ص١١٠ وما بعدها، مج٦، ص٨٦ وما بعدها). وقد بُنيت
 مدارس عديدة بعد زيارة ابن جُبَيْر لبغداد (ابن الفُوطيّ، ص٢٤-٢٥، ٥٣، ١٢٨، ٣٠٨؛
 ابن الأثير، مج١١، ص٢١١). أشهر تلك المدارس: النظاميّة التي بُنيت في العام ٤٥٩هـ
 ومدرسة أبي حنيفة التي أُسّست في العام نفسه (ابن الجوزيّ، م.ن، مج٨، ص٢٤٥-
 ٢٤٦)، وهي اليوم موجودة باسم كلية الشريعة، والمدرسة المستنصريّة التي بُنيت
 في العام ٦٣١هـ بأمرٍ من المستنصر، وظلّت قائمة حتى القرن الحادي عشر الهجريّ.
 كلّ مدرسة من هذه المدارس كانت مختصّة بأحد المذاهب الفقهيّة الأربعة، ما عدا
 المستنصريّة* والبشريّة* (تأسّستا في العام ٦٥٣هـ) اللتين كانتا تدرّسان فقه المذاهب
 الأربعة جميعًا (ابن الفُوطيّ، ص٣٠٨؛ ابن الجوزيّ، م.ن، ص٨، ص٢٤٥-٢٤٧؛
 ابن الأثير، مج١٠، ص٣٨؛ ابن الفُوطيّ، ص٥٣-٥٤، ٥٨-٥٩). وأسس شمس الملوك (ابن
 نظام الملك) كتابًا للأطفال الأيتام (البنداريّ، ص١٥٨). في العام ٦٠٦هـ بُني في بغداد
 عددٌ من دور الضيافة، لمساعدة المحتاجين في شهر رمضان، في جميع أحياء بغداد (ابن
 الأثير، مج١٢، ص٢٨٦، وإشارات أخرى، م.ن، ص١٨٦؛ ابن الفُوطيّ، ص٩٤).

في ذلك العصر أصيبت بغداد بالكثير من الأضرار نتيجة لما تعرّضت له من حرائق
 وسيول ونزاعات داخلية. ففي العام ٤٤٩هـ اندلعت النيران في محلّتي الكرخ وباب
 المُحوّل، واحترقت معظم أسواق الكرخ. وفي العام ٤٥١هـ ذهب القسم الأعظم

من الكرخ وبغداد طُعْمَة للنيران (ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ٨١؛ ابن الأثير، مج ١٠، ص ٥)، كما اندلعت الحرائق أكثر من مرة في الأحياء والأسواق القريبة من نهر المَعْلَى ودار الخلافة (ابن الأثير، مج ١٠، ص ٣٥، ٦٧، ٣١٨؛ ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ٢٤١، مج ٩، ص ٦١، ١٤٨، ١٨٤، مج ١٠، ص ٣٥). وفي العام ٥٥١هـ تسرّبت النيران من الأحياء المجاورة إلى دار الخلافة والأسواق المحيطة (ابن الأثير، مج ١١، ص ١٤٣؛ كما اندلعت في هذه الأحياء حرائق أخرى في الأعوام ٥٦٠، و٥٦٩ و٥٨٣هـ؛ م.ن، مج ١١، ص ٢٧٠، ٣٧٢؛ ابن الجوزي، م.ن، مج ١٠، ص ٢١٢).

كان العيّارون ناشطين في عصر السلاجقة، يقتحمون المنازل والمتاجر وينهبونها، مما جعل حبل الأمن مختلاً (للمرحلة الزمنية الممتدة من العام ٤٤٩ إلى ٥٣٧هـ ← ابن الجوزي، م.ن، مج ٨، ص ١٣٩، ٢٣٤؛ ابن الأثير، مج ١٠، ص ٢٠٤، ٣٨٣، مج ١١، ص ٢٦، ٢٩، ٥٩، ٦٣). كذلك تسببت الفتن التي كانت تثيرها العامّة، والنزاعات المذهبية في ما بينها (بين الحنابلة والشافعيّين، وبين السنّة والشيعة) إلى المزيد من سفك الدماء والدمار. يتحدّث ابن الأثير عن الصلح المؤقت في العام ٥٠٢هـ ثم يضيف: «لقد كانوا [أيّ «العامّة»]، مصدرًا دائمًا للشروع» (مج ١٠، ص ٣٢٩، أيضًا ← مج ١٠، ص ٨٠، ١٠٤، ١٠٨-١٠٩، ١١٢، ١١٧-١١٨، ٢٥٩). لم يعمر هذا الصلح، وعادت النزاعات والصراعات تذرّ بقرنها من جديد، واتّخذت في عهد المستعصم شكلاً مرعباً (م.ن، مج ١٠، ص ٣٦٠، مج ١١، ص ٢٧١، ٣٤٤، مج ١٢، ص ١٣٣، ٢١٦). وفي العام ٦٤٠هـ حصلت اشتباكات بين محلّتي المأمونية وباب العضديّ- امتدت إلى سوق النظامية أيضًا- وبين المختارة وسوق السلطان، وبين قَطْفَتَا القرية (في غربيّ بغداد)، أسفرت عن مقتل عدد كبير من السكّان، كما نُهب المتاجر (ابن الفوطي، ص ١٧٥-١٧٧؛ ← ابن أبي الحديد، مج ٢، ص ٥٥٤). في العام ٦٥٣هـ ازدادت الأحوال سوءاً؛ واشتدّ الصراع بين أهل الرصافة (السنّة) والخَصِيرِيِّين (الشيعة)، وبعد برهة وجيزة هبّ أهالي باب البصرة لنصرة الرصافة، وأهالي الكرخ لنصرة الخَصِيرِيِّين (ابن الفوطي، ص ٢٩٨-٢٩٩). هذه الصراعات - التي اشتدّت لعدم اتخاذ الحكومة أيّ موقفٍ يمكن أن يحدّ منها - إنّما هي دليل

على غلبة روح العداء بين الأحياء. حين عاد النزاع بين الكرخ وباب البصرة واشتدّ من جديد، أرسلت الحكومة فرقة من الجند لفكّ الاشتباك، فهاجم هؤلاء الكرخ، وساهموا في ازدياد تردّي الأوضاع (م.ن، ص ٢٦٧-٢٧٧). كان العيّارون في هذه المرحلة ناشطين جدًّا؛ فكانوا ينهبون المتاجر، ويغيرون ليلاً على المنازل، كما أنّهم أغاروا على المستنصرية ونهبوها، مرّتين (م.ن، ص ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٢، ٣٧٨).

كانت الدولة أعجز من أن تستطيع فرض النظام وإقرار الأمن. كما أنّ تكرار حدوث الفيضان تعبير عن ضعف الحكم وإهماله لأنظمة الريّ وتوزيع المياه. فقد وصلت السيول في العام ٦٤١هـ إلى النظاميّة والمناطق المجاورة لها، وهدمت عددًا من الأحياء. كما اجتاحت السيول شرقيّ بغداد في العام ٦٤٦هـ وخرّبت جزءًا من السور ووصلت إلى محلّة الحرّيم. وفاضت السيول في الرّصافة، وهدمت معظم المنازل. كما غمرت المياه غربيّ بغداد، فهدمت معظم المنازل سوى جزء من باب البصرة، ولحق الخراب بالكرخ، واختفت المنازل المجاورة للنهر. عادت السيول واجتاحت بغداد من جديد في العامين ٦٥١ و٦٥٣هـ وهدمت عددًا كبيرًا من المنازل وأغرقت الحقول. وفي العام ٦٥٤هـ تعرّضت بغداد لأسوأ السيول في تاريخها، حيث حاصرتها المياه من الجانبين، وغمرت الأسواق في شرقيّ بغداد ودخلت دار الخلافة والنظاميّة (م.ن، ص ١٨٦-١٨٧، ٢٢٩-٢٣٣، ٢٦٧، ٢٧٧، ٣٠٤، ٣١٧-٣١٩). وهكذا تعاونت الطبيعة والإنسان وعملا معًا على القضاء على بغداد.

بعد عامين اثنين هاجم المغول بغداد، وفي ٤ صفر من العام ٦٥٦هـ استسلم الخليفة المستعصم بدون قيد أو شرط، وأعمل المغول السيف في رقاب الناس لأكثر من أسبوع، ولم توقّر مجازهم أحدًا، ولم تنج من هذا المصير المؤلم جماعات كبيرة من سكّان الضواحي، الذين كانوا قد لجأوا إلى بغداد قبل محاصرتها. وقد بلغ عدد القتلى بحسب التخمينات من ٨٠٠ ألف إلى مليوني قتيل، وقد تضاعف هذا التخمين بمرور الزمان (ابن الطقطقيّ، ص ١٣٠؛ ابن الفوطيّ، ص ٢٨١؛ الذهبيّ، مج ٢، ص ١٢١؛ ابن

كثير، مج ١٣، ص ٢٠٢). يقول السائح الصيني تشانغ تي^(١) (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) إنَّ عشرات الآلاف من الأشخاص قد قُتلوا؛ والظاهر أنَّه استمدَّ معلوماته من المصادر المغوليَّة (برتشنايدر، مج ١، ص ١٣٨-١٣٩). من الصعوبة بمكان تحديد الرقم الصحيح، لكنَّ من المحتمل أنَّ يكون العدد قد فاق المائة ألف قتيل. لقد اختفت معظم الأحياء بسبب الحصار، والنهب والحرائق، وذهب كلُّ من مسجد الخلفاء، وضح الكاظميَّة طعمة للنيران (ابن الفُوطي، ص ٣٢٧-٣٣٠). لكنَّ بغداد نجت من الخراب الكامل، ساعدت على ذلك، ربَّما، الفتوى التي أُجبر العلماء على إصدارها، والتي تقول إنَّ الكافر العادل خيرٌ من الإمام غير العادل. وقد أصدر هولاء قبل مغادرة بغداد أمراً بترميم بعض المباني العامَّة؛ وجدَّد ناظر الأوقاف بناء جامع الخلفاء، وأشرف على إعادة فتح المدارس والخانات والرباطات (ابن العبري، ص ٤٧٥؛ ابن الفُوطي، ص ٣٣٧). تراجعت الثقافة والعلوم، لكنَّها لم تُقتل من جذورها، وتحوَّلت بغداد من عاصمة إمبراطورية شاسعة إلى مركز ولاية؛ وظلَّت حتى العام ٧٤٠هـ تحت سلطة الحكَّام الإيلخانيين، وكان الحاكم يدير شؤون المدينة بمساعدة مركز شرطة وثكنة عسكريَّة (ابن الفُوطي، ص ٣٣١). عادت الحياة تدريجياً إلى بغداد، وأوكلت إدارتها في معظم الأحيان إلى الإيرانيين؛ وكان السبب الرئيسيُّ هو السياسة التي اتَّبعتها عطا الملك الجويني، الذي استمرَّ حكمه لمُدَّة ٢٣ سنة (٦٥٧-٦٨١هـ). ففي عهده أُعيد تعمير منارة جامع الخلفاء وسوق النظاميَّة، ورُمِّمت المستنصريَّة، واعتمُدت وسائل جديدة لجرِّ المياه إلى المدينة (م.ن، ص ٣٧١)، وأُعيد إعمار مسجد الشيخ معروف ومسجد القمريَّة (م.ن، ص ٤٠٨؛ العزَّاوي، مج ١، ص ٢٦٧-٢٩٦). وعادت بعض المدارس القديمة إلى العمل من جديد، لا سيَّما النظاميَّة، والمستنصريَّة، والبشريَّة والتَّشبيَّة* ومدرسة الأصحاب (ابن بطوطة، مج ١، ص ١٤٠-١٤١؛ ابن الفُوطي، ص ١٨٢، ٣٨٥، ٣٩٦؛ العزَّاوي، مج ١، ص ٣١٨). وقد أسَّست زوجة الجويني المدرسة العِصمِيَّة، لتدريس المذاهب الفقهيَّة الأربعة، كما بنت بالقرب منها رباطاً (ابن الفُوطي، ص ٣٧٧). أرسل الإيلخان

(1) Ch'ang Te

تكودار (٦٨١هـ) رسالة إلى بغداد طالباً إعادة الأوقاف إلى المدارس والمساجد، كما كانت عليه في عهد العباسيين، وربما كان ذلك لأسباب دينية (الكرملي، ص ١٢). اعتمد الإيلخانيون سياسة الدعم لغير المسلمين، كإعفاء المسيحيين من الجزية، ومساعدتهم في بناء المدارس والكنائس، فأدّى ذلك في العام ٦٦٥هـ إلى أعمال عنائية استهدفت المسيحيين. كما أنّ اليهود في عهد أراغون (٦٨٣-٦٩٠هـ) نالوا الكثير من الحظوة بسبب وجود وزير المالية اليهودي، المدعو سعد الدولة، الذي عين أخاه حاكماً على بغداد. في العام ٦٩٠هـ قُتل سعد الدولة، وأمّعن عامّة الناس باليهود قتلاً. في عهد غازان، عانى غير المسلمين عذاباً شديداً بسبب اللباس الخاصّ المفروض عليهم ارتداؤه، وضريبة الرؤوس، ومعاملة العامّة لهم بعنف، ووجد الكثيرون منهم أنفسهم مجبرين على اعتناق الإسلام (← عمرو بن متى، ص ١٢٠-١٢٢، ١٢٥؛ ابن الفوطي، ص ٣٥٤، ٤٦٥-٤٦٦، ٤٨٣؛ وصّاف الحضرة، ص ١٤٣، ١٤٨؛ الكرملي، ص ١٤-١٥، ٢١؛ العزّاوي، مج ١، ص ٣٤٩، ٥١٣). وقد أثار أولجايتو فتنة كبيرة حين كان حائراً في اختيار التشيع أو التسنن بعد أن أعلن إسلامه. لقد سعى الإيلخانيون لترويج التشاوش* (عملة ورقية) وفرضها، لكنّ أهل بغداد رفضوا استخدام هذه النقود، وفي العام ٦٩٧هـ سقطت من التداول بأمرٍ من غازان (ابن الفوطي، ص ٤٧٧، ٤٩٢).

بالنسبة إلى هذا العصر هنالك معلومات عن بغداد، قدّمها ثلاثة من الجغرافيين، هم ابن عبد الحقّ (حوالي العام ٧٠٠هـ)، ابن بطوطة (٧٢٧هـ)، والمستوفي (٧٤٠هـ). ورد في كتاب المراصد لابن عبد الحقّ ما يلي: لم يبق من غربيّ بغداد سوى بضع محلات متباعدة، ومحلة الكرخ أشدها اكتظاظاً بالسكان (ابن عبد الحقّ، ص ٢٠١). وفيه إشارات كذلك إلى محلات القرية، والرملية المكتظة بالسكان، وسوق دار الرقيق، ودار القزّ حيث يُصنع الورق، وباب المَحْوَل الشبيهة بالقرية النائية (ص ١٤٦، ٢٠١، ٥٠٧، ٧٧٣، ١٠٨٨). ويذكر كذلك المستشفى العضديّ، ويقول إنّ المحلات الثلاث: الحريم الظاهريّ، ونهر الطابق، والقطيعة لم يبق منها أثر يُذكر، ومحلة توتة أشبه بقرية نائية (ص ٢٨٠، ٣٩٧، ٨٣٧، ١٤٠٣). وجاء في كتاب المراصد (ص ٢٠١) حول شرقيّ

بغداد: «إنَّ القسم الأعظم من شرقيِّ بغداد دُمِّر في أثناء اجتياح التتار، الذين أعملوا السيف في رقاب الناس، وأفنوهم عن بكرة أبيهم، والناجون منهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد، بعد ذلك، جاء الناس من خارج المدينة واستوطنوا فيها». ثم يضيف إنَّ أحياء الحلبَّة والقرِّيَّة، وقطيعة العجم كانت عامرة مكتظة بالسكَّان (م.ن، ص ٤١٧، ١٠٨٨، ١١١٠).

زار ابن بطوطة بغداد، بعد زيارة ابن جُبَيْر لها، وتكلَّم على وجود جسرين فيها، وقدَّم وصفًا مفصَّلًا لحماماتها الممتازة (مج ١، ص ١٤٠-١٤١)، وقال إنَّها كانت تضمُّ مساجد ومدارس عديدة، لكنَّ معظمها مدمَّر (مج ١، ص ١٤٠).

أمَّا حمد الله المستوفي فيقدِّم معلومات جديدة بالاهتمام، وجاء وصفه للسور الشرقيِّ من بغداد مطابقًا لوصف ابن جُبَيْر، فهو يقول إنَّ لهذا السور أربع بوابات، وهو يحيط بالمدينة على شكل نصف دائرة، وطول محيطه ثمانية عشر ألف قدم. ويسمِّي المستوفي غربيِّ بغداد باسم الكرخ، ويقول إنَّها محاطة بسور مدوَّر يبلغ طول محيطه اثني عشر ألف قدم، والحياة في بغداد هيَّنة، لكنَّ لغة أهلها العربيَّة قد أصابها التحريف واللحن، ومعظم أهل بغداد من الشافعيِّين والحنابلة، على الرغم من وجود أعداد من أتباع الفرق الأخرى. وتكثر فيها المدارس والرباطات؛ لكنَّ النظاميَّة بحسب حمد الله المستوفي «أكبر تلك المدارس»، والمستنصريَّة هي الأجل من حيث البناء (ص ٤٠-٤٢). ومن الممكن أن يكون ضريح زبيدة حفيدة بكر المستعصم، عائدًا إلى تلك المرحلة (العزَّاوي، مج ١، ص ٤٠٦).

في العام ٧٤٠هـ أقام الشيخ حسن الكبير في بغداد، وهو مؤسس السلسلة الجلائرية التي استمرَّ حكمها حتى العام ٨١٣هـ. وفي هذا العصر بُني مسجد مرجان، ويُسْتَخْلَص من الكتابات على جدرانه، أنَّ مرجان أحد قادة أويس [الجلائري] قد بدأ ببناء المدرسة والمسجد التابع لها في عهد الشيخ حسن الكبير، وانتهت أعمال البناء في العام ٨٥٧هـ. وكانت هذه المدرسة تابعة للشيعة والأحناف (نصوص الكتابات في الآلوسي، ١٣٤٦هـ ص ٤٥ وما بعدها؛ ماسينيون، مج ٢، ص ١ وما بعدها). ولم يبق سوى بوابة المدرسة-

أو المسجد؛ ثم تكلم بعد ذلك على السيول والحصار والفتن التي خلّفت الكثير من الدمار.⁽¹⁾

استولى تيمور على بغداد مرتين، في المرّة الأولى، في العام ٧٩٥هـ لم تتضرّر كثيراً، أمّا في المرّة الثانية، في العام ٨٠٣هـ فقد ذُبح أهل المدينة عن بكرة أبيهم، ودُمّرت معظم المباني العامّة (العائدة إلى العصر العباسي) والأحياء. وكانت تلك هي الضربة القاضية على حضارة بغداد وثقافتها. وفي العام ٨٠٧هـ عاد أحمد الجلائري إلى بغداد، وبادر إلى إعادة إعمار المباني والأسواق، لكنّ حكمه لم يُعمر طويلاً.

في العام ٨١٣هـ احتلّ التركمان القره قوينلو بغداد، وظلّت في أيديهم حتى العام ٨٧٢هـ حيث سيطر عليها الآق قوينلو التركمانيون. وقد تراجعت بغداد كثيراً في أثناء حكم التركمانيين، ومُنيت بأضرار لا تحصى، معظمها عائداً إلى قصورهم السياسي، فغادرها عددٌ كبيرٌ من أهلها، وأدّى انهيار أنظمة توزيع المياه إلى تكرار اجتياح السيول للمدينة مع ما جرّته عليها من الدمار والخراب. وفي شرحه لحوادث العام ٨٤١هـ يقول المقريزي: «إنّ بغداد مدينة مدمّرة، لا مسجد فيها ولا مجمع ولا سوق، جفّت معظم أنهارها، ومن الصعب بمكان أن يُطلق عليها اسم المدينة» (المقريزي، مج ٣، ص ١٠٠؛ ← العزّاوي، مج ٣، ص ٧٩ وما بعدها؛ الكرمل، ص ٦١ وما بعدها). فضلاً عن ذلك، هي محكومةٌ بالتعصّب القبلي، وقد بدأت التحالفات القبليّة تؤثّر أكلها في إثارة الفتن في البلاد.

في العام ٩١٤هـ احتلّ الشاه إسماعيل الصفويّ بغداد، وبدأت مرحلة التنازع على بغداد بين العثمانيين والصفويين. وقد ورد في أغنية بغدادية ما معناه: «في الصراع بين الإيرانيين والروم أصبح عيشنا مريراً». لقد دُمّرت بأمر من الشاه إسماعيل معظم مزارات أهل السنّة ومنها ضريحا أبي حنيفة وعبد القادر الجيلاني، وقُتل عددٌ كبيرٌ من قادة أهل التسنن. وشرع ببناء ضريح للإمام موسى الكاظم عليه السلام، وعيّن على بغداد حاكماً لقبه خليفة الخلفاء (العزّاوي، مج ٣، ص ٣٣٦-٣٤٣). وقصد بغداد عددٌ

(1) Massignon

كبيرٌ من التجار الإيرانيين، وأدّى ذلك إلى ازدهار التجارة في المدينة. بعد مدّة قصيرة سيطر فيها الزعيم الكرديّ، ذو الفقار، على بغداد، معلناً الطاعة للسلطان سليمان القانونيّ، أعاد الشاه طهماسب احتلال بغداد في العام ٩٣٦هـ؛ وفي العام ٩٤١هـ دخل السلطان سليمان القانونيّ بغداد وبنى فوق ضريح أبي حنيفة قبّةً، كما شيّد مسجداً ومدرسةً تابعين للمزار، ورّمم مسجد الجيلانيّ وتكيتته وضريحه، وفي كلّ من المسجدين أقام داراً للضيافة لمساعدة المعوزين، وأكمل كذلك بناء ما كان قد بدأ الشاه إسماعيل من المزار والمسجد الكاظميّين (أوليا جليبي، مج ٤، ص ٤٢٦؛ الآلوسيّ، ١٣٤٦هـ ص ١١٧؛ العزّاويّ، مج ٤، ص ٢٨ وما بعدها). كما أمر أن تُعيّن الأملاك وتوضع لها المعالم، وتسجّل، ووضع الترتيبات اللازمة لإدارة هذه الولاية وتنظيمها (أوليا جليبي، مج ٤، ص ٤١). وأوكل إدارة الأمور إلى الوالي (باشا)، وأمين السجل (للأمور الماليّة) والقاضي. وأقيمت ثكنة عسكريّة في بغداد، شكّل الجنود الإنكشاريون* عمودها الفقريّ.

في العصر اللاحق، لم يبق سوى بضعة أبنية قائمة. وفي العام ٩٧٨هـ شيّد مراد باشا مسجد مراد في حيّ الميدان، وأمر بترميم مسجد الجيلانيّ. كما شيّد تشغاله زاده رباطاً، ومقهى وسوقاً مشهورة. كما بنى جامع الصّفا أو جامع الخفّافين، ورّمم التكيّة المولويّة المعروفة حالياً باسم مسجد الآصفيّة (العزّاويّ، مج ٤، ص ١١٦، ١٢٨-١٣٢؛ ← الآلوسيّ، ١٣٤٦هـ ص ٣٠-٣١، ٦٢-٦٤). بنى حسن باشا كذلك مسجداً، اشتهر باسم مسجد حسن باشا، وباسم جامع الوزير أيضاً (مرتضى، ص ٦٦؛ أوليا جليبي، مج ٤، ص ٤١٩). كما بنى سوراً وخندقاً حول الكرخ لحمايتها من غارات البدو.

في هذا العصر بدأت رحلات السياح الأوروبيين إلى بغداد التي وُصفت أنّها ملتقى القوافل، ومركز كبير للتجارة مع الحجاز وإيران وتركيا. وقد ذكر سيزارفردريغو^(١) (٩٧٠هـ/١٥٦٣م) أنّه رأى في بغداد عدداً كبيراً من التجار الأجانب. ويقول السير أنطوني شيرلي^(٢) (٩٩٨هـ/١٥٨٠م) أنّه رأى فيها «جميع أنواع البضائع الممتازة، والزهيدة

(1) Caesar Frederigo

(2) Sir Anthony Shirley

الأثمان» (برتش^(١)، مج ٨، ص ٣٨٤). كان في بغداد جسر من المراكب مربوطة ببعضها بسلسلة حديدية ضخمة. وفي أثناء مرور أحد المراكب في النهر تُفكُّ بعض مراكب الجسر عن بعضها، إلى أن ينتهي العبور (رالف فيتش^(٢)، في العام ١٥٨٣م؛ هكلوت^(٣)، مج ٣، ص ٢٨٢-٢٨٣). ذكر روولف^(٤) (١٥٧٤هـ/١٥٧٤م؛ مج ١، ص ١٧٩ وما بعدها). أنَّ الحواري ضيقة والمنازل قبيحة المنظر، ومعظم المباني مدمرة، ولم يسلم سوى بعض المباني العامة، كمقر إقامة الباشا، والسوق الكبيرة، أو المصرف. أما الحمامات فليست كما ينبغي. والقسم الشرقي من المدينة محميٌّ جيداً بسور وخذق، في حين أنَّ القسم الغربي غير مسور، وهو أشبه بقرية كبيرة، وسور المدينة مبنيٌّ بالآجر، والتحصينات الفرعية تشتمل على أربعة أبراج على رأس كلٍّ منها مدفع برونزي ثقيل الوزن وصالح للاستعمال (تكسير^(٥)، ص ٣١). ويبلغ محيط السور ميلين أو ثلاثة أميال. وذكر جان الدر^(٦) (١٥٨٣هـ/١٥٨٣م)، أنَّ أهل بغداد يتكلمون ثلاث لغات: العربية والفارسية والتركية (هكلوت، مج ٣، ص ٣٢٥). أما رالف فيتش (١٥٨٣هـ/١٥٨٣م)، فوجد أنَّ بغداد ليست مدينة كبيرة، لكنها مكتظة بالسكان. وخمّن بدروتكسيرا، السائح البرتغالي (١٠١٣هـ/١٦٠٤م)، أنَّ عدد منازل شرقي بغداد يصل من عشرين إلى ثلاثين ألفاً. وأنَّ في بغداد داراً للضرب، تصكُّ فيها النقود الذهبية والفضية والنحاسية. وأنَّ الحكومة أسست فيها مدرسة للرماية بالسهم، وأخرى للرماية بالرصاص (تكسير، م.ن، ص.ن). بعد تمرد بكر* السوباشي (الصوباشي)، احتلَّ الشاه عباس في العام ١٠٣٢هـ مدينة بغداد. وقد لحقت أضرار فادحة بمباني مدارس أهل السنة ومزاراتهم ومن ضمنها مسجد الجيلاني ومسجد أبي حنيفة. وقتل آلاف الأشخاص، أو بيعوا رقيقاً، ومن بقي

-
- (1) Purchas
 - (2) Ralph Fitch
 - (3) Hakluyt
 - (4) Rauwolf
 - (5) Teixeira
 - (6) John Eldred

على قيد الحياة فقد أُوذِيَ أذىً شديداً (حاجي خليفة، ١٢٩٧هـ مج ٢، ص ٥٠؛ المحبِّي، مج ١، ص ٣٨٣؛ العزّاوي، مج ٤، ص ١٧٨-١٨٢). في هذا العصر، بنى صفي قلي خان، حاكم بغداد الإيراني «السراي» (دار الحكومة). وفي العام ١٤٠٨هـ احتلّ العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع بغداد. الذي أمر بإعادة إعمار المزارات، ولا سيّما ضريحَي أبي حنيفة والجيلاني، وحين مغادرته أقيم سور حول باب الطلّسم، ظلّ قائماً حتى العام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م، حيث فُجِّر في أثناء انسحاب العثمانيين من المدينة. كما أنّ الصدر الأعظم في عهد السلطان مراد الرابع رمّم القلعة على أحسن ما يرام.

هنالك معلومات عديدة أخرى متوافرة، قدّمها السيّاح الذين زاروا المدينة في هذا العصر مثل تافرنيه (١٠٦٢هـ/١٦٥٢م) وأوليا جليبي (١٠٦٥هـ/١٦٥٥م)، وتونو^(١) (١٠٧٣هـ/١٦٦٣م) منها أنّ السور المحيط بشرقيّ بغداد، كان شبه مدوّر، وارتفاعه ستين ذراعاً وعرضه من عشرة إلى خمسة عشر ذراعاً، وفيه فتحات لفوّهات المدافع. وفي زواياه الرئيسيّة أبراج عريضة، اشتهرت أربعة منها، وأنشئت كذلك أبراج أصغر تفصلها عن بعضها مسافات قصيرة. وفي أعلى الأبراج العريضة نُصبت مدافع برونزيّة. ويمتدّ السور بمحاذاة النهر، لأهداف دفاعيّة (يُشاهد هذا السور في الخريطة التي رسمها نصّوح الصلاحيّ في العام ٩٤٤هـ للسلطان سليمان؛ سوزا^(٢)، ص ١٢). يوجد في السور، من جهة البرّ ١١٨ برجاً، ومن جهة النهر ٤٥ برجاً (حاجي خليفة، ١١٤٥هـ ص ٤٥٧ وما بعدها؛ بوتر^(٣)، ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، مج ٢، ص ٢٦٥؛ - قارن باكينغهام^(٤)، ص ٣٧٢ - حيث يذكر أنّ ١٧ برجاً من أصل ١١٧ كانت عريضة). لهذا السور من جهة البرّ ثلاث بوابات (لأنّ السور بُني أمام بوّابة الطلّسم): باب الإمام الأعظم في الشمال على بعد سبعمائة ذراع من دجلة، قرأئلق قابو (باب كلّواذا) أو البوّابة السوداء في الجنوب، على بعد خمسين ذراعاً من دجلة، وآق قابو (الباب الوسطانيّ)، أو البوّابة

- (1) Thevenot
- (2) Sousa
- (3) Porter
- (4) Buckingham

البيضاء في الشرق. كانت البوابة الرابعة بمحاذاة الجسر، وقد قاس أوليا جلبي السور، بخطواته البطيئة، ووجد أنّ طولهُ ٢٨٨٠٠ قدم أو سبعة أميال (الميل = ٤٠٠٠ قدم)، في حين أنّ حاجي خليفة ذكر أنّ طولهُ ١٢٢٠٠ ذراع أو ميلين (نيبور^(١))، وأوليفيه^(٢) ذكر أنّ طول شرقيّ بغداد ميلان). وذكر ولستد^(٣) أنّ محيط الأسوار يبلغ سبعة أميال. أمّا فليكس جونز^(٤)، الذي قاس مساحة بغداد في العام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م، فيرى أنّ محيط الأسوار في شرقيّ بغداد، ومن ضمنها الجزء المشرف على النهر يبلغ ١٠٦٠٠ يارد أو حوالي ستة أميال (أوليفيه، مج ٢، ص ٣٧٩-٣٨٠؛ ولستد، مج ١، ص ٢٥٥؛ جونز، ص ٣١٨؛ قارن روسو^(٥)، ص ٥، تافرنيه^(٦)، ص ٨٤).

يحيط بالسور خندق عرضه ستين ذراعًا، كان يُملأ من مياه دجلة. وكان في الزاوية الشماليّة الغربيّة من السور قلعة تمتدّ من باب المعظمّ حتى دجلة، يحيط بها جدار خاصّ، فيه أبراج صغيرة نُصب فوق كلّ واحد منها مدفع. وفي القلعة دار الجند، ومستودعات العتاد والمؤن، وفيها أيضًا الخزانة، ومصنع الأسلحة، وفي أسفل القلعة «السراي»، مكان إقامة الباشا، وهي تضمّ حدائق واسعة وعمائر جميلة. في الناحية الأخرى من الجسر الموجود في الكرخ، بُنيّت قلعةٌ باسم قلعة الطيور (أوليا جلبي، مج ٤، ص ٤١٦؛ حاجي خليفة، ١١٤٥هـ ص ٤٥٠-٤٥٧؛ تافرنيه، ص ٦٤؛ تونو، مج ٢، ص ٢١١). يشير أوليا جلبي إلى مساجد بغداد التي لا حصر لها، ويذكر أسماء تسعة منها هي الأكثر أهميّة. وعن المدارس يقول إنّ اثنتين منها أي المرجانيّة ومدرسة الخلفاء (المستنصريّة) هما الأكبر، ومن بين الرباطات العديدة اثنان فقط وضعهما جيد، ويذكر كذلك وجود ثمانية كنائس وثلاثة معابد يهوديّة، لكنّ قوله إنّ عدد التكايا (سبعمائة

-
- (1) Niebuhur
 - (2) Oliver
 - (3) Wellsted
 - (4) Felix Jones
 - (5) Rousseau
 - (6) Tavernier

باب) والحمامات (خمسمائة باب) فأرقام مبالغ فيها. ويقول إنَّ جسر المراكب، يحوي من ٣٧ إلى ٤٠ مركبًا، بما يتناسب وعمق النهر، ويمكن أن تؤدِّي بعض المراكب الموجودة في الوسط مهام أمنية ليلية، أو تُستخدم لعبور النهر، أو لاتخاذ تدابير واحتياطات عسكرية. واللغات الأساسية المتداولة في المدينة هي العربية والتركية والفارسية، وفي بغداد أفضل أنواع الحمام الزاجل.

مع ذلك كله، كانت بغداد تسير نحو الهاوية بخطى حثيثة، ووصل عدد سكَّانها إلى حدِّه الأدنى، أي خمسة عشر ألف نسمة (أوليا جلي، مج٤، ص٤٢٠ وما بعدها؛ تافرنه، ص٨٥-٨٦؛ تونو، مج٢، ص٢١١).

في المدَّة الزمنية الفاصلة بين العامين ١٠٤٨ و١١١٦هـ تناوب على حكم بغداد أربعة وعشرون باشا، ولم يكن هنالك مجال لأي نوع من أنواع التقدُّم. كان الباشاوات نصف مستقلين، وكانت سلطة الإنكشارية مطلقة. وتزايدت قوَّة العشائر، وبدأت تهدد تدريجيًّا حياة المدينة. لم يُنجز [في عصر هؤلاء الباشاوات] أي عمل عمراني سوى ترميم جدران بعض المساجد.

في بداية القرن الثاني عشر الهجري، اضطربت الأوضاع في بغداد اضطرابًا شديدًا، وسيطر الجيش الإنكشاري على المدينة، والعشائر العربية استولت على المناطق المجاورة، وفُقد السلام والأمن التجاري. حمل تنصيب حسن باشا في العام ١١١٦هـ وبعده ابنه أحمد، عهدًا جديدًا لبغداد، فقد نصَّب هذان الحاكمان المماليك (الغلمان) لمراقبة الإنكشاريين، ووضعوا خطة سلطة المماليك التي استمرت حتى العام ١٢٤٧هـ خضع الإنكشاريون والقبائل العربية للنظام، وأقِرَّ الأمن، وزال الخطر الإيراني. رمم حسن باشا مسجد السراي (جديد حسن باشا)، وألغى الضرائب على الحطب والمواد الغذائية، وخلص أهالي الأحياء من الخوات التي فُرِضت عليهم بعد المجازر (لوريمر، مج١، ص١١٩٣-١١٩٤؛ فائق بيك حروب الإيرانيين، الورقتان ١٨ و١٩؛ نفسه، تاريخ المماليك، الورقة ٤؛ حديقة الزوراء، الورقة ٩؛ مرتضى، ص٢٢٥). وقد تابع أحمد باشا سياسة أبيه، وأولى بغداد جلَّ اهتمامه ورفع شأنها، وفي عهده حاصر نادرشاه بغداد

مرّتين (في العام ١١٥٠هـ وفي العام ١١٥٦هـ)، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي لحقت بالمدينة في أثناء الحصار الأوّل، إلّا أنّ أحمد باشا لم يتوانَ عن المقاومة، وتمكّن من إنقاذ المدينة. وبعد موت أحمد باشا في العام ١١٦٠هـ حاولت اسطنبول فرض سلطتها مجدّداً على بغداد، لكنّها جوبهت بمقاومة المماليك، وفي العام ١١٦٢هـ أصبح سليمان باشا أوّل حاكم مملوكيّ على مدينة بغداد، وهو المؤسس الفعليّ لحكم المماليك في المدينة، ومنذ تلك اللحظة وجد السلطان العثمانيّ نفسه مجبراً على الاعتراف رسمياً بمقامهم، وكان يوافق بشكل عام على الحكّام المقترّحين. وتقليدياً للعثمانيين أقدم حسن باشا الذي نشأ في البلاط العثمانيّ (غلام خانة زاد [مولودٌ في دار الغلمان])، على تأسيس مراكز لتنشئة المماليك الشراسكة والكرجيين وأبناء كبار القوم المحليين. وقد طوّر سليمان باشا ما كان قد بدأه حسن باشا، بحيث أنّ مدرسة التدريب كانت تضمّ باستمرار ما يقارب مائتي شخص، يتلقّون دروساً نظريّة وعمليّة في الشؤون العسكريّة والإداريّة، وكان منهاج الدراسة يتضمن القراءة والكتابة، وطرق استخدام الأسلحة، وأعمال الفروسية، والرياضة البدنيّة، وفي نهاية المرحلة الدراسيّة يتعلّم الطلبة شيئاً من آداب البلاط وتقاليده، ليتم إعداد المجموعة المختارة للعمل الحكوميّ (فائق بيك، تاريخ المماليك، الكركوكلي، ص ٨). وهكذا تكوّنت طبقة حاكمة حسنة الإعداد والتدريب، فاعلة، وضخمة، لكنّها ضعيفة بسبب الحسد والمؤامرات. لقد طوّع سليمان باشا العشائر، وأقرّ النظام والأمن، وشجّع التجارة. وجاء بعده علي باشا في العام ١١٧٥هـ وعمر باشا في العام ١١٧٧هـ فأكملا ما كان قد بدأ به (جودت باشا، مج ١، ص ٣٣٩-٣٤٠). في العام ١١٨٠هـ تأسّست في بغداد ممثليّة بريطانيّة بناءً على القرار الصادر عن مؤتمر بومباي (لوريمير، مج ١، ص ١٢٢٥). وفي العام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م انتشر في المدينة وباء الطاعون، وظلّ يفتك بالناس مدّة ستّة أشهر، وكانت المحصّلة وفاة الآلاف، وهجرة الكثيرين، وتوقّف عجلة الاقتصاد (م.ن، مج ١، ص ٣٢٤). مع ذلك فإنّ سيادة الأمن جعلت من بغداد مركزاً تجارياً كبيراً: وقد وصف شاهد عيان بغداد في العام ١١٨٨هـ بقوله: «هذا المكان [بغداد] سوق كبيرة

تُعرض فيها البضائع المستوردة من الهند وإيران واسطنبول وحلب ودمشق، إنَّها مخزن الشرق، العظيم» (م.ن، مج ١، ص ١٢٤٣).

أدَّى الضعف والخلاف بين المماليك إلى تمزُّد العشائر وانتشار الفوضى، واحتلال إيران للبصرة. وقد انتهت مرحلة اللاإستقرار هذه بوصول سليمان باشا الكبير (في العام ١١٩٣هـ) إلى سُدَّة الحكم. فتوحَّدت تحت سلطته بغداد وشهرزور والبصرة، ولَجَم تمزُّد العشائر، وعمَّم الهدوء، وأحيا سلطة المماليك (جودت باشا، مج ٢، ص ١٤٦، ١٥٧-١٥٨؛ الصوفي، ص ١٩ وما بعدها، ص ٥٤ وما بعدها؛ فائق بيك، تاريخ المماليك، الورقتان ١٦ و ١٧). وأعاد سليمان باشا تعمير أسوار بغداد، وبنى سوراً حول الكرخ محاطاً بخندق، وجدَّد بناء السراي، كما أسَّس المدرسة السليمانية، ورمَّم المساجد الثلاثة: القَبْلانيَّة والفضل والخلفاء. هذا بالإضافة إلى إنشاء سوق السراجين، كما أنَّ رئيس حرَّاسه (الكحَّيا) شرع ببناء مسجد الأحمديَّة (جامع الميدان)، وقد أكمله أخوه في ما بعد (بصرى، ص ٧٠-٧٣، ٧٦-٧٧). في السنة الأخيرة من حياته (١٢١٧هـ) انتشر وباء الطاعون في بغداد (لوريمر، مج ١، ص ١٢٨٥؛ الخطيب العُمري، ص ٦٤). أمَّا كوتشكوك سليمان (١٢٢٣هـ) فقد ألغى عقوبة الإعدام، إلَّا في الحالات التي تقرُّها المحاكم الدينيَّة، ومنع مصادرة الأموال، وألغى الرسوم التي تفرضها المحاكم، وحصر مهمَّة إحقاق الحقِّ بالقضاة (فائق بيك، م.ن، الورقة ١٦؛ الكركوكلي، ص ٢٥٠).

وصل داود باشا (١٢٣١هـ) إلى سُدَّة الحكم بعد مرحلة من الاضطراب، فطوَّع العشائر وفرض النظام والأمن، وأمر بتنظيف مجاري الأنهار، وبنى مصانع نسيج، ومصانع أسلحة، وشجَّع الصناعات المحليَّة، وشيَّد ثلاثة مساجد كبيرة، أهمُّها مسجد حيدر خانة. كما أسَّس ثلاث مدارس، وسوقاً بمحاذاة الجسر، وأنشأ جيشاً قوامه عشرون ألف جندي، أوكل إلى ضابط فرنسيٍّ أمرَ تدريبهم.

لقد تمكَّنت إدارته الناشطة الحكيمة من الارتقاء بمستوى الحياة في المدينة التي عاشت مرحلة من الازدهار في عهده. أمَّا سبب سقوط داود ونهاية حكم المماليك، فكان نتيجة للسياسة اللامركزيَّة والإصلاحية التي اعتمدها السلطان محمود الثاني،

فضلاً عن وباء الطاعون، والقحط والسيول، التي قضت مجتمعةً على معظم سكّان المدينة (١٢٤٧هـ؛ حديقة الزوراء، الورقتان ٤٣-٤٤، ٥٣، ٥٥-٥٦؛ السويدي، الورقتان ٤١-٤٢؛ مرآة الزوراء، ص ٥٩؛ فائق بيك، م.ن، الأوراق من ٣٩ إلى ٥٢؛ لوريمر، مج ١، ص ٣١٦؛ فريزر^(١)، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ <كتيّب بلاد ما بين النهرين>^(٢)، مج ١، ص ٨٠-٨١).

كان النظام الإداري في بغداد صورة مصغّرة عن النظام الإداري في اسطنبول، حافظ على الصلاحيات الرفيعة العسكرية والإدارية للباشا، وكان يدير الشؤون شخص يسمّى «كتخدا» (أو كحيا)، يشبه عمله عمل وزير الداخلية، له مساعدان هما الدفتردار [أمين السجّل] الذي يتولّى إدارة الأمور المالية، والآخر «ديوان أفنديسى» [رئيس ديوان الوزارة]. ويتولّى ضابط رئاسة حرس القصر، وهو في الوقت نفسه «آغا» [قائد] الإنكشارية، أمّا المؤسسة القضائية فبرئاسة أحد القضاة. وكان الباشا يستدعي أعضاء «الديوان» وهم الكحيا [الكتخدا] والدفتردار [أمين السجّل]، والقاضي، وقائد الحرس وسائر الشخصيات البارزة، للتباحث حول المسائل المهمة، وكان في القصر أجنحة تضمّ المعلمين والمربّين (لله) لتعليم المماليك وتربيتهم (جودت باشا، مج ٢، ص ٢٨٧، مج ٣، ص ٢٠٤؛ البصري، ص ٣١-٣٢، ٣٩، ٥٦؛ روسو، ص ٢٥ وما بعدها). كان الجيش المملوكي يتألّف من ١٢٥٠٠ جندي، وفي الحالات الطارئة كان ينضم إليه الجنود المحليون والمواطنون من سائر أجزاء الولاية، فيصل العدد إلى ثلاثين ألفاً (فائق بيك، م.ن، الورقتان ٥١-٥٢).

قدّم السيّاح الأوروبيون معلومات عن بغداد في هذه المرحلة الزمنية، وقد ذكر بعضهم أنّ الأسوار قد شيّدت أو رُمّمت في أزمنة متفاوتة، وأنّ الأقسام القديمة منها تبدو أفضل من الجديدة (باكينغهام، ص ٣٣٢؛ ← جونز، ص ٣٠٩).

كانت مساحة الرّحبة داخل الأسوار (في القسم الشرقي)، بناءً على المقاييس التي أجراها فليكس جونز، تبلغ ٥٩١ جريباً (آيوز^(٣)، ص ٢٠؛ روسو، ص ٥). والظاهر أنّ السور المحاذي

(1) Fraser

(2) Handbook of Mesopotamia

(3) Ives

للنهر قد أهمل، وبُنيت المنازل على الساحل (أوليفيه، مج ٢، ص ٣٧٩). لكنَّ القسم الأكبر من المساحة المسوّرة، لا سيّما في الجهة الشرقيّة، لم يكن مأهولاً. أمّا القسم القريب من النهر فقد كان مكتظاً بالسكّان، مع ذلك كان عدد البساتين والحدائق كبيراً، حتى أنّ المدينة تبدو طالعةً من قلب مزارع النخيل (نيبور، مج ٢، ص ٢٣٩؛ باكينغهام، ص ٣٧٣؛ ولستد، مج ١، ص ٢٥٥). كانت السراي واسعة، ذات حدائق غنّاء، وكانت فخمة الأثاث والمفروشات (روسو، ص ٦؛ بورتر، مج ٢، ص ٢٦٣).

كان القسم الغربيّ، أي الكرخ، أشبه بالضّاحية المتعدّدة الحدائق. وكانت خلواً من التحصينات بادئ ذي بدء (روسو، ص ٥؛ آيوز، ص ٢٨)، إلى أن بنى سليمان الكبير السور حولها، وكان لهذا السور أربع بوابات: باب الكاظم (في الشمال)، باب الشيخ معروف (في الغرب)، باب الحلّة (في الجنوب الغربيّ) وباب الكريّمات (في الجنوب). كان طول الحوائط ٥٣٠٠ مترًا تحيط بأرض مساحتها ٤٢٦ جريبًا (جونز، ص ٣٠٩). ذكر كِزبورتر (١٢١٣هـ/١٨١٨م)، أنّ معايرها الواسعة، التي لا حصر لها، كان فيها دكاكين مملأ بالبضائع (مج ٢، ص ٢٥٥؛ المنشي البغداديّ، ص ٣١). لكنّ هذه الناحية لم تكن مكتظة بالسكّان كما هو الحال في الناحية الشرقيّة، وكان سكّانها بشكل عام، من عامّة الشعب (نيبور، مج ٢، ص ٢٤٤؛ روسو، ص ٤). كان ارتفاع الجسر المكوّن من المراكب ١,٨م، وكان الأهالي الذين يريدون عبور النهر يستخدمون هذا الجسر أو «القُفْف» (بورتر، م.ن، ص.ن؛ نيبور، مج ٢، ص ٢٤٣؛ المنشي البغداديّ، م.ن، ص.ن).

في هذا العصر تزايد عدد سكّان المدينة تدريجيّاً، وقد قدّر روسو (حوالي العام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م، ص ٨) عدد السكّان بخمسة وأربعين ألف نسمة، أمّا أوليفيه فقد قدّره بثمانين ألفاً (مج ٢، ص ٣٨٥)، في حين أنّ أهلها يرفعون هذا الرّقم إلى مائة ألف؛ وقد وصل تقدير عدد السكّان في العام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م من ١٢٠ إلى ١٥٠ ألفاً (فريزر، مج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥). وكانوا خليطاً متعدّدي الأعراق والمذاهب. كان الديوانيون [الموظّفون الرسميون] من الأتراك (أو المماليك)، والتجار عرباً، وكانت هنالك أيضاً جماعات إيرانيّة وكرديّة، وبعض الهنود (باكينغهام، ص ٣٧٨؛ نيبور، مج ٢، ص ٢٥٠؛

بوتر، مج ٢، ص ٢٦٥؛ ولستد، مج ١، ص ٢٥١). كان في بغداد، لا سيّما بالقرب من الجسر، أسواقٌ عديدة، وكانت الكبرى منها مسقوفة بالقناطر الآجريّة، في حين كانت أسقف الأسواق الأخرى من خوص النخيل. وكان فيها عدد كبير من المنازل و٢٤ حمامًا، وخمس مدارس كبرى، وعشرون مسجدًا واسعًا، وعددٌ كبيرٌ من المساجد الصغيرة (باكينغهام، ص ٣٧٨-٣٧٩؛ منشي البغدادي، م.ن، ص.ن).

كانت المعابر ضيّقة، لبعضها بوابات تقفل ليلاً للحماية، وكانت المنازل مرتفعة، ونوافذها مفتوحة على الأزقة، وداخل المنزل، صُفّ من الغرف المفتوحة على الباحة الداخليّة المربّعة الشكل التي تضمّ في العادة حديقةً. وتحت المنازل «سرايب»، يلجأ الناس إليها هربًا من حمّارة القيظ، في حين أنّ السقائف ملاءمة لوقت العصر، وفي فصل الصيف كان الناس ينامون فوق الأسطح (← باكينغهام، ص ٣٨٠). وكان في بغداد بعض الصناعات من بينها الدباغة، ومعاملٌ للمنسوجات القطنيّة والحريريّة والصوفيّة (روسو، ص ٩-١٠).

ظلت بغداد من العام ١٢٤٧هـ وحتى انهيار الدولة العثمانيّة تحت إشراف اسطنبول مباشرة، وبادر بعض حكّامها إلى إجراء الكثير من الاصلاحات، وأوّل من بادر إلى تحسين الأوضاع الاقتصاديّة، محمّد رشيد باشا (١٢٦٣هـ) الذي أسّس شركة لشراء سفينتين لنقل البضائع بين بغداد والبصرة، ونجاحه في هذا العمل دفع بريطانيا للسير على خطاه. وأسّس نامق باشا (١٢٦٩هـ) «دميرخانه» لإصلاح السفن (تشيهه^(١)، ص ٥٤، ٥٨-٥٩؛ لوريمر، مج ١، ص ١٣٦٠، ١٣٦٦-١٣٧٢). وابتدع مدحت باشا (١٢٨٩-١٢٨٦هـ) نظام «الولاية» الجديد، وكان يساعد الوالي معاونٌ، ومديرٌ للشؤون الخارجيّة ومأمونٌ أو كاتب، وكانت الولاية تقسّم إلى سبعة سناجق، وكل سنجق يرأسه متصرف، وكانت بغداد أحد هذه السناجق (لوريمر، مج ١، ص ١٤٤٢، ١٤٤٧-١٤٤٨)، وقد ألغى مدحت باشا بعض الضرائب التي تُثقل على الناس مثل ضريبة الاحتساب (ضريبة حراسة البوابات)، التي كانت تُفرض على أيّ محصول يُجلب إلى جانب البوابة

(1) Chiha

للبيع، وضريبة الطالبيَّة على نقل المياه، و«خمس الحطب» أو ضريبة الوقود التي تبلغ ٢٠٪، و«رؤوس السقاية» أو ضريبة نواعير المياه المستخدمة في الزراعة، وفرض بدلاً منها تقديم عشر المحصولات الزراعيَّة (م.ن، مج ١، ص ١٤٤٢). وفي العام ١٢٨٧هـ أنشأ مدحت باشا (ص ٥١) قطاراً لربط بغداد بالكاظميَّة، استمرَّ استخدامه في ما بعد لمدة سبعين عاماً، وكان قد أسَّس في العام ١٢٨٦هـ أوّل مركز للنشر، ومطبعة ولاية بغداد، وصحيفة الزُّوراء، التي كانت أولى الصحف التي تصدر في العراق كناطق رسميِّ باسم الحكومة، وظلَّت حتى جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ/آذار/مارس ١٩١٧م تصدر مرَّة في الأسبوع (م.ن، ص ٤٧ وما بعدها؛ ترازوي^(١)، مج ١، ص ٧٨؛ العزَّاوي، مج ٧، ص ٢٤١؛ <كتيب بلاد ما بين النهرين>، مج ١، ص ٨٠). أمَّا بالنسبة إلى المدارس فلم يكن في بغداد أيُّ مدرسة جديدة باستثناء المدارس التي أنشأها المرسلون الفرنسيُّون، لذلك أسَّس مدحت باشا بين العامين ١٢٨٦ و١٢٨٨هـ عدَّة مدارس جديدة، من بينها المدرسة المهنيَّة، والمدرسة ("الرشديَّة") أيُّ العسكريَّة الابتدائيَّة، والمدرسة العسكريَّة الثانويَّة "الإعداديَّة"، كما أنشأ مدرستين غير عسكريَّتين واحدة ابتدائيَّة وأخرى ثانويَّة (المُلكيَّة) (الزُّوراء، العدد ١٨٢؛ العزَّاوي، مج ٨، ص ٢١؛ كتاب بغداد السنوي، ١٩٠٠م، ص ٤٥٤؛ تشييه، ص ١٠٠-١٠٢). هدم مدحت باشا أسوار المدينة كخطوة في سبيل عصرنتها، وأكمل مبنى السراي التي كان نامق باشا قد بدأ بتشييدها. [قدّم ناصر الدين شاه، الذي كان قد زار العتبات المقدَّسة في العام ١٢٨٧هـ في أثناء وصفه اللافت للأجواء في المدينة، فهرساً بأسماء الأعيان وأصحاب المناصب «الديوانيَّة والعسكريَّة»، الذين زاروه برفقة مدحت باشا (ص ٩٢-٩٣)].

استمرت النهضة التعليميَّة التي كان مدحت باشا قد بدأها، من بعده؛ وقد افتُتحت أولى مدارس البنات في العام ١٣١٧هـ. وفي العام ١٣٠٧هـ أنشئت أربع مدارس ابتدائيَّة للبنين، وفي العام ١٣١٨هـ أنشئت دار المعلمين التمهيدية (كتاب المعارف السنوي، ١٩٠٠م، فيضي، ص ٥٨-٥٩). بلغ عدد المدارس في العراق حتى العام ١٣٣١هـ

(1) Tārazi

مائة واثنتين، منها ٦٧ مدرسة إبتدائية و ٢٩ مدرسة رشديّة، وخمس ثانويّات وكلية جامعة هي كلية الحقوق (لغة العرب، ١٩١٣م، ص ٣٣٥). وتأسست بين العامين ١٣٠١ و ١٣٢٥هـ خمس مطابع. وبعد العام ١٣٢٦هـ صدر في بغداد عددٌ من الصحف، وحتى العام ١٣٣٣هـ صدرت ٤٥ صحيفة، أصدرها أشخاص مختلفون.

بعد مدحت باشا تعاقب على الحكم ولاة لم يأتوا بالكثير من الأعمال. في العام ١٣٠٣هـ أقرّ نظام التجنيد الإجباري (للمسلمين فقط). وفي العام ١٢٩٦هـ افتتح المستشفى الذي كان مدحت باشا قد بناه (الزّوراء، العدد ٨١٠). وفي العام ١٣٢٠هـ أنشئَ جسر جديدٌ من المراكب كان عرضه مناسباً لعبور وسائل النقل، كما أنشئَ مقهى في الجهة الجنوبيّة (الآلوسي، ١٣٤٦هـ ص ٢٥). وفي العام ١٣٢٦هـ أرسلت بغداد ثلاثة نواب إلى المجلس العثمانيّ (العزّاوي، مج ٨، ص ١٦٥)؛ وفي العام ١٣٢٨هـ بنى ناظم باشا آخر الولاة الفاعلين سدّاً حول شرقيّ بغداد لحمايتها من السيول (م.ن، مج ٨، ص ٢٠٠-٢٠١).

كان الوالي هو الذي يرأس الهيئة الإداريّة، يعاونه مجلس نصف أعضائه منتخب، والنصف الآخر يعينه الوالي. وكان اثنان على الأقلّ من النواب المنتخبين، من غير المسلمين، وكان يساعد الوالي قائم مقام (الزّوراء، العدد ١٣٦٩؛ كتاب بغداد السنوي، ١٢٩٢هـ). كان من بين المناصب المهمة هيئة مديرية «المعارف»، وهيئة مديرية «الطابو» [السجلّ العقاريّ]، والمحاكم المدنيّة (كتاب بغداد السنوي، ١٣٠٠هـ ص ٨٢-٩٦). ظلّت بغداد حتى العام ١١٨٢هـ مركز الولايات الثلاث: بغداد والموصل والبصرة. وقد فصلت عنها الموصل في العام ١٢٧٨م، والبصرة في العام ١٣٠١هـ وأصبحت بغداد ثلاث متصرفيّات «متصرّ فلق» (تشبهه، ص ٨٥).

خلّف الطاعون والسيول في العام ١٢٤٧هـ آثاراً مرعبة، فقد انهارت معظم المنازل في شرقيّ بغداد، وثلثا المساحة الواقعة بين الأسوار تحوّلت إلى أرض مقفرة، وتهدّم القسم الأكبر من الكرخ. كما أنّ الأسوار من الجانبين تشقّقت بفعل السيول، وأصبحت المدينة في حالة يرثى لها، مقارنةً بعهد داود باشا، (فريزر، مج ١، ص ٢٣٣-٢٣٤، ٢٥٢).

٢٦٩). يشير ساوث غيت^(١) (١٢٥٣هـ)، إلى أنَّ المدينة قد تمكَّنت تدريجيًّا من تجاوز المحنة، وقدَّر عدد سكَّان المدينة في ذلك العصر بأربعين ألف نسمة، ولاحظ أنَّ المدارس قد أُهملت، ومداخيل أوقافها لا تُنفق كما ينبغي (١٨٥١م، مج ٢، ص ١٦٥-١٦٦، ١٨٠؛ <كتيب بلاد ما بين النهرين>، مج ١، ص ٨٠-٨١).

حين أجرى فليكس جونز (في العام ١٢٦٩-١٢٧٠هـ) مسحًا لمدينة بغداد (ص ٣٣٩؛ فريزر، ص ٢٣٣-٢٣٤)، كان قد طرأ شيء من التحسُّن على أوضاعها. فهو يذكر ٦٣ محلَّة في شرقيِّ بغداد و٢٥ محلَّة في الكرخ، كانت لا تزال محتفظةً بأسمائها. بدأ عدد سكَّان المدينة يتزايد تدريجيًّا ابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر الهجريِّ، كان في العام ١٢٦٩هـ حوالي ستين ألف نسمة (جونز، ص ٣١٥، ٣٢٩)، وفي العام ١٣٣٦هـ كان مائتي ألف نسمة. لقد أثار اختلاط الأعراق، وتنوع الألسنة، والحرية غير المسبوقة التي يحظى بها غير المسلمين، والتسامح الشديد بين أبناء الشعب، إعجاب السيَّاح (م.ن، ص ٣٣٩؛ أوليفيه، مج ٢، ص ٣٨٨-٣٩٠). وقد خُلف هذا الاختلاط آثارًا في اللهجة البغداديَّة (عبد اللطيف، قاموس اللهجة البغداديَّة، مخطوط)، لكنَّ اللغة العربيَّة كانت اللغة المشتركة للجميع، وقد زاد عدد سكَّان بغداد العرب، بعد أن استوطنتها عناصر بدويَّة (غيري^(٢))، مج ١، ص ١٣٦، ٢١٤). وكان السكَّان يتجمعون في أحياء خاصَّة تبعًا للعرق أو المذهب (جونز، م.ن، ص.ن). استوطن الأتراك الأحياء الشماليَّة، في حين أنَّ اليهود والنصارى ظلُّوا مقيمين في أحيائهم القديمة: اليهود في شماليِّ سوق العزُّل والنصارى في غربيَّة. وكان معظم الإيرانيين يقطنون الناحية الغربيَّة، لكنَّ معظم سكَّان الكرخ كانوا من العرب (م.ن، ص.ن؛ ساوث غيت، م.ن، مج ٢، ص ١٨٢؛ <كتيب بلاد ما بين النهرين>، مج ٢، ص ٣٨١). ومع أنَّ أتباع الديانات الثلاث كانوا يتكلَّمون العربيَّة، إلَّا أنَّ لهجاتهم مختلفة (لغة العرب، ١٩١١م، ص ٦٩-٧١).

(1) Southgate

(2) Geary

كانت بعض الصنائع في بداية القرن العشرين لا تزال موجودة، ومن منسوجات بغداد ذُكرت الأقمشة الحريرية، والقطنية، والحريرية- القطنية، والأقمشة الصوفية المخمّطة، والأقمشة القطنية السمكة، لمناديل الرأس والعباءات الرجالية، ومن ألبسة النساء ذُكرت الملاحف والأردية الفوقانية. كانت الأقمشة الحريرية البغدادية مشهورة بألوانها الزاهية وطريقة نسجها، وكانت حرفة الدباغة متقدمة جداً، وتعدّ من الصنائع المهمة، وفي المَعظّم وحده، كانت تعمل حوالى أربعين مدبغة. كما كانت صناعة البُسُط والسيوف في مرحلة متطورة، وكان هنالك مصنع عسكريّ لنسج الأقمشة (كتاب بغداد السنوي، ١٣٠٠هـ ص ٧٩، ١٣٦؛ <كتيب بلاد ما بين النهرين>، مج ١، ص ٢٣١).

كانت أسواق بغداد إمّا مسقوفة، أو كسوق العزّل مكشوفة. وكانت الناحية الشرقية من الجسر بأسواقها المتعدّدة: السراي، والميدان، والشرجة، وسوق الأقمشة التي رَمّمها داود باشا، تعدّ المركز التجاريّ الرئيسيّ. وكانت بعض الأسواق مخصّصة لصناعات وحرف معيّنة، وتستمدّ أسماءها منها، مثل سوق الصّافير (النحاسين)، سوق السراجين، سوق الصاغة، سوق الخفّافين [الحدّائين]، وغير ذلك (أوليا جلي، مج ٤، ص ٢٢).

كان في بغداد شارعان رئيسيّان: الأوّل يمتدّ من البوابة الشماليّة وصولاً إلى الجسر، والثاني من البوابة الجنوبيّة وصولاً إلى أقصى السوق الرئيسيّة. في العام ١٣٣٣هـ وُصِلت البوابتان الشماليّة والجنوبيّة بجادة تسمّى حالياً شارع الرشيد (كتاب بغداد السنوي، ١٣١٨هـ ص ٥٩٩-٦٠٠؛ <كتيب بلاد ما بين النهرين>، مج ١، ص ٣٧٧). في العام ١٣٤٠هـ عمل نامق باشا بجِدِّ على تحسين وضع الشوارع (كتاب بغداد السنوي، ١٣١٨هـ ص ٦٠). وفي العام ١٣٠٧هـ نقل سِرِّي باشا «الميدان»، إلى ميدان آخر مربع، تتبعه حديقة (كتاب بغداد السنوي، ١٣٢١هـ ص ٧٦). في العام ١٢٨٥هـ شكّل مدحت باشا مجلس المدينة المنتخب، وأصدر قرارات لتأمين نظافة الشوارع. وفي العام ١٢٩٦هـ تشكّلت المجالس البلديّة، وصدرت قرارات متعلّقة بالنظافة العامّة، وتنظيف مجاري

المياه (الزُّوراء، الأعداد ٢٣١، ٨١٧، ٨٧٨، ١٧٧٤؛ لغة العرب، مج ١، ص ١٧؛ كتاب بغداد السنوي، ١٣٠٠هـ ص ١٣٦). كما جرى العمل على إضاءة الشوارع بالمصابيح النفطية ولُزِمَت مسؤولية التنفيذ مُقاطعةً إلى أحد الأشخاص [مقاطعجي]، إمَّا عملياً لم تُضاً سوى الشوارع التي كان يسكنها الأعيان (الزُّوراء، العددان ٤٩٠ و٨٣٧).

كانت مساحة بغداد في أوائل القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي حوالي أربعين ميلاً مربعاً، وكانت بقايا السور في الجزء الشرقي من المدينة، الذي هُدِّمَ بأمرٍ من مدحت باشا، تشكّل مع النهر متوازي أضلاع يبلغ متوسط عرضه حوالي الميل، وما يقارب ثلث هذه المساحة، كان خالياً من السكّان، أو هو مقبرة أو خربة، وفي الجهة الجنوبيّة هنالك جزء جدير بالملاحظة، تكسوه أشجار النخيل. أمّا الكرخ فهي بالنسبة إلى بغداد الشرقيّة تبدأ من الجزء الأعلى، لكنّها أقلّ طولاً وعرضاً (>كتيّب بلاد ما بين النهرين<، مج ٢، ص ٢٧٦). في العام ١٢٩٩هـ كان في بغداد ١٦٣٠٣ منازل وستمائة رباط، و٢١ حمّاماً، و٤٦ مسجداً كبيراً (جامعاً)، و٣٦ مسجداً صغيراً، و٣٤ كتاباً، و٢١ مدرسة دينيّة و١٨٤ مقهى و٣٢٤٤ دكاناً (كتاب بغداد السنوي، ١٣٠٠هـ م.ن، ص.ن). في العام ١٣٢١هـ كان في بغداد ٤٠٠٠ دكان، و٢٨٥ مقهى، و١٣٥ بستان فاكهة، و١٤٥ مسجداً جامعاً، وستّ مدارس ابتدائيّة، وثمانٍ مدارس لغير المسلمين، و٢٠ صومعة (تكيّة)، واثنتا عشرة مكتبة لبيع الكتب، ومكتبة عامّة واحدة، وعشرون كتاباً للصبيان، وثمانٍ كنائس، وتسع مدايح، ومصنغ صابون، و١٢٩ معملاً لصناعة الخيوط، (كتاب بغداد السنوي، ١٣٢١هـ ص ١٧٩). وفي العام ١٣٢٧هـ وصل عدد المنازل إلى تسعين ألفاً، وكان هنالك ثلاث مطابع خاصّة، وستّ كنائس وستّة كُنُس (كتاب بغداد السنوي، ١٣٢٤هـ ص ٢٢٣). وقد وصف شكري الآلوسي ٤٤ مسجداً في شرقيّ بغداد وثمانية عشر مسجداً في الكرخ (١٣٤٦هـ؛ ماسينيون، مج ٢، ص ٦٣-٦٥).

ظهر في بغداد في العصر العثمانيّ شعراء بارزون كالفضوليّ والذهنيّ والأخرس، وعبد الباقي العمريّ، ومؤرّخون كالمرتضى والغرابيّ وشكري الآلوسيّ، وفقهاء كعبد الله السويديّ وأبي الثناء الآلوسيّ (الآلوسيّ، ١٩٣٠م).

المصادر والمراجع: فضلاً عن القرآن، محمود شكري الآلوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، بغداد ١٣٤٦هـ؛ نفسه، المسك الأذفر، مج ١، بغداد ١٩٣٠م؛ أحمد بن محمد الأبيشي، المستطرف، بولاق؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء؛ ابن أبي طاهر، تاريخ بغداد، مج ٦، لايبزيغ ١٩٠٨م؛ ابن الأثير، كتاب الكامل في التاريخ، ط. تورنبرغ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، القاهرة ١٩١٨م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة [تاريخ المقدمة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م]؛ [ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م]؛ ابن الجوزي، تلبيس إبليس؛ نفسه، مناقب بغداد، بغداد ١٩٢١م؛ نفسه، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧-١٣٥٩هـ/١٩٣٨-١٩٤٠م؛ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ط. كرامرس، ليدن ١٩٣٨-١٩٣٩م؛ [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ط. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-١٩٧٧م]؛ ابن رسته، الأعلام النفيسة، ط. دخويه ليدن ١٨٩٢م؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ط. مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٤م؛ ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة؛ ابن عبد الحق، مرصد الاطلاع، القاهرة؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط. أنطون الصالحاني اليسوعي، لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، نسخة خطية مشهودة، م.ن. ط. دخويه، ليدن ١٨٨٦م؛ ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ط. مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ/١٩٣٢م؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن المعتز، الديوان، بيروت ١٩١٣م؛ إسماعيل بن علي أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ط. رينورد وديسلان، باريس ١٨٤٠م؛ علي بن الحسين أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، بولاق ١٢٨٥هـ؛ إخوان الصفا، الرسائل؛ الأربلي، التبر المسبوك؛ محمد بن محمد الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ط. آدم متز، هايدلبرغ ١٩٠٢م؛ إبراهيم بن محمد الإصطخري، كتاب مسالك الممالك، ط. دخويه ليدن ١٩٦٧م؛ محمد أمين، بغداد وحادثه الضياع، إسطنبول ١٣٣٨-١٣٤١هـ؛ محمد ظلي بن درويش أوليا جلي، سياحته [كتاب السياحة]، مج ٢، القسطنطينية ١٣١٤هـ؛ عثمان بن سند البصري، مطالع السعود في

أخبار الوالي داود، تلخيص أمين بن حسن الحلواني المدني، القاهرة ١٣٧١هـ؛ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق؛ [عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط. مصطفى السقا، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م؛ فتح بن علي البنداري، تاريخ سلسلة سلجوق، زبدة النصر ونبذة العصر، ترجمه بالفارسيّة محمد حسين الخليلي، طهران ١٣٥٦ش [١٩٧٧م]؛ التطيلي، [الرحلة]، ترجمه بالعربيّة ا. ح. حداد، بغداد ١٩٤٥م؛ محسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة؛ نفسه، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، مج ١، القاهرة ١٩٢١، مج ٨، دمشق ١٩٣٠م؛ عمرو بن بحر الجاحظ، البغلاء؛ نفسه، الرسائل، ط. السندوبي؛ أحمد جودت باشا، التاريخ، إسطنبول ١٣٠١-١٣٠٩هـ؛ محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٣٨م؛ مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، جهان نما [صورة العالم]، القسطنطينية ١١٤٥هـ؛ نفسه، فذلكة، مج ٢، إسطنبول ١٢٩٧هـ؛ حدود العالم من المشرق إلى المغرب، نسخة خطيّة؛ حديقة الزوراء، تلخيص عبد الرحمن السهروردي، نسخة خطيّة؛ علي بن ناصر الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ط. محمد إقبال، لاهور ١٩٣٣م؛ حمدالله بن أبي بكر حمدالله المستوفي، نزهة القلوب، ط. لسترنج، ليدن ١٩١٣م؛ [أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، لاتا]؛ ياسين بن خيرالله الخطيب العمري، غرائب الأثر، ط. جليلي، الموصل ١٩٤٠م؛ عبد القادر الخطيبي، شعراء بغداد، ط. أنستاس ماري الكرملي، بغداد ١٩٣٦م؛ الدمشقي، التجارة؛ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري؛ محمد بن أحمد الذهبي، دول الإسلام؛ محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، [القاهرة] ١٩٦١م؛ سالنامه بغداد [كتاب بغداد السنوي]، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣١٢، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣٢١، ١٣٢٤هـ؛ سالنامه معارف [كتاب المعارف السنوي]، إسطنبول ١٩٠٠م؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان؛ أحمد بن عبد الله السويدي، نزهة الأدباء، نسخة خطيّة؛ سهراب، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، ط. هانس فون مزيك، لايبزيغ ١٩٣٠م؛ عبد الرحمن السهروردي،

نزهة الأدباء في تراجم علماء ووزراء بغداد، نسخة خطية؛ علي بن محمد الشابستبي، كتاب الديارات، ط. كوركيس عواد، بغداد ١٩٥١م؛ إبراهيم بن الهلال الصابي، رسائل الصابي؛ هلال بن الموحسن الصابي، رسوم دار الخلافة، نسخة خطية؛ الصوفي، تاريخ المماليك؛ محمد بن يحيى الصولي، أخبار الرازي بالله والمتقي لله، القاهرة ١٩٣٥م؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط دخويه ... [وأخرين]، ليدن ١٨٧٩-١٩٠١م؛ عبد اللطيف، قاموس لهجة بغداد، نسخة خطية؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين الاحتلالين، بغداد ١٩٣٦-١٩٥٨م؛ عمرو بن مئى، كتاب المجدل؛ محمد بن محمد الغزالي، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية؛ سليمان فائق بيك، تاريخ المماليك في بغداد، نسخة خطية؛ نفسه، حروب الإيرانيين، نسخة خطية؛ فريدون بيك باشا، منشآت السلاطين، إسطنبول ١٢٧٤هـ؛ س. الفيضي، النضال؛ إسماعيل بن قاسم القالي، كتاب الأمالي، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م؛ عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ط دخويه، ليدن ١٨٩٧م؛ عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة؛ علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط ليرت، لايبزيغ ١٩٠٣م؛ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء؛ أنستاس ماري الكرملي، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، ١٣٣٩هـ؛ علي بن محمد الماوردبي، الأحكام السلطانية؛ محمد أمين بن فضل الله المحببي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، بيروت [لاتا]؛ جميل بن نخلة المدور، حضارة الاسلام في دار السلام؛ المرتضى، گلشن خلفا [روضه الخلفاء]؛ علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والأشراف، القاهرة؛ نفسه، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط باريه دمينار وباوه دكورتل، باريس ١٨٦١-١٨٧٧م؛ محمد بن محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط دخويه، ليدن ١٨٧٧م؛ مطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، ط كلمان هوار، باريس ١٨٩٩-١٩١٩م؛ أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك؛ محمد بن أحمد المنشي البغدادي، رحلة المنشي البغدادي، نقلها عن الفارسية عباس العزاوي، بغداد ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م؛ ناصر الدين قاجار، شاه ايران، شهريار جاده

ها: سفرنامه ناصر الدين شاه به عتبات [ملك الجادات: رحلة ناصر الدين شاه إلى العتبات]، ط محمد رضا العباسي، وبرويز البديعي، طهران ١٣٧٢ ش [١٩٩٣م]؛ أحمد بن عبد الوهّاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة [١٩٢٣-١٩٥٥م]؛ [عبد الله فضل الله وّصاف الحضرة، تحرير تاريخ الوّصاف، بقلم عبد المحمّد آيتي، طهران ١٣٤٦ ش [١٩٦٧م]؛ ياقوت الحَمَوّي، معجم البلدان، ط. فرديناند ووستنفلد، لايبزيغ ١٨٧٣-١٨٧٦م؛ أحمد بن إسحق اليعقوبي، البلدان، ط دخويه، ليدن ١٨٩٢م؛ نفسه، التاريخ، ط هوتسما، ليدن ١٨٨٣م؛

A. Abel, «Les marchés de Baghdad», in **Bulletin de la Société belge d'études géographiques** (1949), 148–164; Benjamin of Tudela, **Itinerary**, ed. and tr. A. Asher, New York 1840–1842; Bretschneider, **Medieval researches**; J. S. Buckingham, **Travels in Mesopotamia**, London 1827; W. Budge, **By Nile and Tigris; Chiha, La Province de Baghdad**, Cairo 1900; R. Coke, **Baghdad the city of peace**, London 1927; Delitzsch, **Paradies**; M. Djawad, in **Review of the higher teachers' college**, Baghdad; Frazer, **Travels**; Geary, **Through Asiatic Turkey; Handbook of Mesopotamia**, London 1917; W. B. Harris, **From Batum to Baghdad**, Edinburgh 1896; Herzfeld, **Paikuli**, Cl. Huart, **Histoire de Baghdad dans les temps modernes**, Paris 1904; **Hudūd al-ālam**, tr. V. Minorsky, Cambridge 1982; **ĪA**, s.v. «Baghdad» (by M. Cavid Baysun); E. Ives, **Journey from Persia to Baghdad**, London 1778; Felix Jones, **Memoir on Baghdad**, Bombay 1857; G. Le Strange, **Baghdad during the Abbasid caliphate**, Oxford 1924; R. Levy, **A Baghdad chronicle**, Cambridge 1929; S. H. Longrigg, **Four centuries of modern Iraq**, Oxford 1925; J. G. Lorimer, **Gazetteer of**

the Persian Gulf, vol. I, pts. I and II, Calcutta 1925; L. Massignon, **Mission en Mesopotamie**, vol. II, Cairo 1912; Ali Haydar Midhat, **The life of Midhat Pasha**, London 1903; Miskawayh, **Tadjārib al-Umam**, vol. I–VII ed. and tr. Amedroz and Margoliouth, 1920–1921; Jacques Jean Marie de Morgan, **Délégation en Perse, Mémoires**; C. Niebuhr, **Voyage en Arabie**, vol. II, 1780; Obermeyer, **Landschaft Babylonien**, 1929; Olivier, **Voyages**, Paris 1804; Marco Polo, **Travels**, ed. Frampton; Ker Porter, **Travels in Syria, Persia, Armenia, ancient Babylonia**, London 1817–1820; Rauwolf, **Travels**, in Ray's collection, London 1605; **Reallexikon der Assyriologie**, Berlin 1928; Rousseau, **Description du pachalik de Baghdad**, Paris 1809; Salmon, **Introduction**; Sarre and Herzfeld, **Archäologische Reize im Euphrat und Tigris-Gebiet**, Berlin 1900; D. S. Sassoon, **History of the Jews in Baghdad**, Letchworth 1949; Schorr, **Altbabylonische Rechtsurkunden**; A. Sousa, **Atlas Baghdad**, Baghdād 1952; H. Southgate, **Narrative**, 1851; idem, **Tour through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia**, London 1850; M. Streck, **Die Alte Landschaft Babylonien**, I, Leiden 1900; Tarrāzī, **Arabic Press**; Tavernier, **Travels**, London 1678; Pedro Texeira, **Travels**, ed. Hakluyt; M. de Thevenot, **Relation d'un voyage fait au Levant**; J. R. Wellsted, **Travels in the city of the caliphs**, London 1840; Ya-ḳūbī, **Les pays = Ketāb al-boldān**, tr. G. Wiet, Cairo 1937.

/عبد العزيز الدوري، ملخصاً مع قليل من التصحيح (د. الإسلامية)/